

نظرات متبادلة

**الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتاب العرب**

البريد الالكتروني: aru@net.sy E- mail:

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الانترنت
<http://www.awu.sy>

الإخراج الفني: وفاء الساطي

الدكتور أحمد زياد مجيبك

نظرات متبادلة

سلسلة القصة (2)
2018

منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق

مفتتح ألم لا ينتهي

يقلقني أني في كل ما كتبت
لم أكن وفياً لك
لم أكتب عنك
ولا عني
ولكنك كنت معي
وكنت معك
ما ابتعدت أنت عني
وما ابتعدت أنا عنك
وكنت دائماً أرجع إليك
وها أنذا الآن معك
وأظن أني لن أفيك حقك
مهما كتبت
ولكن سأظل أكتب

*

أنت محيط الدائرة ومركزها
أنت وحدك الكل
بعطاياك أحيا
أنت المبتدأ
وأنت المنتهى
وطالما ابتعدت أنا عنك
ولكنني كنت أحس دائما
أني عنك لا أبتعد
دائما كل أشواقي
في القرب وفي البعد
إليك وحدك

*

يؤلمني أني لم أكتب
لا عنك ولا عني

*

هل أستطيع يوما أن أكتب؟

جلال وحبّات الكرز الكبيرة

أُمسِكُ يدَ ابني جلال، أُمسِكها بلطف، ولكنه يقول لي:

- بابا، أوجعت أصابعي.

وأدرك أنني حقيقة كنت أشد على أصابعه من حيث لا أدري.

وأَمْضِي به في الشارع الصاعد، وأنا أكاد أنزلق، الماء يسح على عرض الشارع، وأنا أسير في وسطه بين السيارات، صاعداً على طولهِ، لا أعرف لماذا أسرع، كأنني أريد الوصول فوراً إلى نهايته، لأبلغ قمته، حيث تتناثر هناك في الأعلى البسطات وعربات الخُضَر والفواكه وبعض المحلات الشعبية البسيطة.

جلال يقول لي:

- بابا، هذا هو الكرز، هناك.

ويشير إلى محل ذي واجهة زجاجية على يميني، تصطف أمامه مدرجات خشبية تنهض فوقها أهرامات صغيرة من التفاح الأحمر والأصفر والبرتقال الذهبي والكرز الأحمر القاني بحباته الكبيرة.

والأجير أمام المحل يمسك بالخرطوم يرش أرض الشارع، ويتصاعد الصهد.

أشد جلال من يده، وأقول له:

- هناك، فوق، بائع، أعرفه، والشراء من أول السوق غلط.

ويرد:

- هذا الكرز شاهدناه في التلفزيون، المذيع قال مفيد، والأحمر الغامق، مفيد أكثر.

قبل ساعة كانت إحدى القنوات الفضائية تتحدث عن فوائد الكرز، وولدي جلال جن جنونه لدى رؤيته حبات الكرز في التلفزيون.

ويسألني:

- بابا، نزل الكرز إلى السوق؟

وتعلق الأم:

- أنا كنت في الباص، ورأيتَه في السوق العالي، في
المحلات الكبيرة، على طرفِ السوق، والحبّة كأنها بحجم
الجوزة.

أبلع ريقِي، حنجرتي أحس بها مثل زجاج يتكسر،
ألتفت إليها، أغمز بعيني.

وجلال يلح علي للذهاب إلى السوق فوراً، بل يلح علي
ذهابه معي، فقد عودته علي أخذه معي إلى السوق، وأنا
أحاول إقناعه بالانتظار حتى تميل الشمس إلى المغيب، أقول
له:

- يا ولدي الآن الساعة الرابعة، ولم يؤذن بعد للعصر،
شمس آخر تموز حارقة، أخاف عليك من الحر.

وبعد ساعة، أمام إلحاح جلال أجدني أجره من يده إلى
السوق العالي، والشمس ترمي نارها على الرؤوس، وكأنها
قد ازدادت اشتعالاً.

ألمح أمام الكرز الذي أشار إليه ابني رقم: 400.

مرة ثانية يقول لي جلال:

- بابا، أوجعت أصابعي.

وأترك يده، أتركه يمشي إلى جوارِي حُرّاً، وأنا أغذ

الخطا، أحس بأنني أنحني إلى الأمام وأنا أصعد في الشارع،
والماء يسح على عرضه.

أقول لولدي:

- انتبه، لا تنزلق، وتقع، أصحاب المحلات هنا كما
ترى، دائماً يرشون الشارع أمامهم بالماء.

ويسأل جلال:

- لكن، المياه في حيناً قليلة، وتأتي في الأسبوع مرة أو
مرتين.

- هنا عندهم آبار خاصة.

جلال يمسك بيدي، ويقول:

- بابا، تعال، لنمشي على الرصيف، في المدرسة قال
المعلم يجب السير على الرصيف الأيمن.

أسير في منتصف الشارع، أو على طرف منه، على
الرغم من مرور السيارات إلى جوارى، أحاول ألا نسير على
الرصيف أمام المحلات الفخمة، حيث تصطف الخضرة
والفواكه على مدرجات خشبية في أشكال هندسية
جميلة، لامعة متألقة، فأنا أخشى أن أشتتها، أو يشتتها
ولدي جلال، حقيقة كما قال مرة أحد أصدقائي: "تشتها

الكرز مكوم على العربية في شكل هضبة، تلوها
وريقة رسم فوقها بحبر أسود: 300
أشد ولدي من يده، أضغط عليها، أقول:
- هناك في الطرف الآخر بائع.
ونسير بين عربات كثيرة متزاحمة.
كرز كثير، وعربات كثيرة، ليس هناك ماهو دون
.300

قبل خروجي، فتحت حافظة نقودي، ناولت زوجتي ألف
ليرة، وقلت لها:
- أبقئها معك، ما بقي معي غير ألف وخمسمئة ليرة،
وأماننا أسبوع كامل حتى أقبض راتبي، وأخاف من تأخر
المعتمد في تقبيض الراتب يومين أو ثلاثة.
وعند الباب تقول لي:
- لا تنس شراء كيلوين من الباذنجان لنقليله غداً
بالزيت.
وأرد:
- وهل بقي عندنا زيت؟ سنمضي بقية الأسبوع مع
العدس بالحامض والخبز اليابس.

وألمح من بعيد عربية، فوقها كومة صغيرة من الكرز
المائل إلى الأصفر، وأسرع إليها، حبات الكرز ناعمة، لونها
باهت، ليس بالأحمر ولا الوردى، كأنها صفراء، الكمية
قليلة، ليست تلة ولا هضبة.
أسرع إليها، وأنا أمر بين أكوام من القمامة، أقول
لولدي:

- انتبه، لا تضع قدمك، هنا، انتبه، حتى لا تتزلق.
وألاحظ جلال وهو يسد أنفه من الروائح المنبعثة من بين
العربات.

وأسأل البائع عن السعر فيجيب:
- للدروايش، نصف الكيلو بمئة ليرة.
جلال يشدني من يدي، وهو يغمغم:
- لأ، بابا، هذا الكرز ما طيب، وما هو الذي حكى
عنه المذيع في التلفزيون.

جلال في السادسة من عمره، العام الماضي اشترت له
من هذا النوع، أو أفضل، كان سعر الكيلو مئة ليرة،
لكن ما أحبه، أكل بضع حبات وتركه.
أتجول بين العربات، الشمس فوق رأسي تصب نارها،
أضع يدي على رأس ولدي جلال، أرد عنه الشمس.

جلال يشدني من يدي، مرة أخرى، وهو يغمغم:

- بابا، تعال نرجع إلى أول محل في بداية السوق.

أعلق:

— كرمى لعيونك، سأشتري لك حبات الكرز

الكبيرة، أكبر حبات كرز في السوق.

*

وأهبط به في الشارع، أسير على الرصيف مضطراً،

لعلي أعرثر بمحل، الكرز فيه بسعر مقبول. ليس هناك ما

هو دون 400 ليرة. أقف أمام محل، أقول للبائع:

- ضع لي من هذا الكرز ربع كيلو.

البائع يضحك، يقهقه، يفتح شذقه العريض، يحشرج

بصوت أجش، وهو يسأل ساخراً:

- ربع كيلو؟ ربع كيلو يا رجل؟ طولك وعرضك تشتري

ربع كيلو؟ تريد شراء ربع كيلو، هكذا ببساطة أحمل لك

الكيس وأملؤه وأضعه في الميزان لأبيعهك ربع كيلو بمئة

ليرة؟.

الدم يقفز إلى وجهي، أحس بأذنيّ الاثنتين قد أصبحتا

حمراوين، شيء يخزني في الصدر عند الطرف الأيسر، قلبي

يدق، أعلق:

- عائلتي صغيرة، وما عندي غير هذا الولد.
ويضحك البائع، صوته يجلجل:
- عمرك رايح إلى الخمسين وما عندك غيره؟
وأرد بصوت خافت، وأنا أتلعثم:
- ظروف الموظف دائماً قاسية، وتزوجت في وقت متأخر.
البائع يمضي في تعليقه:
- وما عندك غيره وتشتري له ربع كيلو؟ عمي، الله
يرضى عليك، اطلع لفوق، هناك عربات في آخر السوق في
الأعالي - ما شاء الله - عندها كيلو الكرز بمئة ليرة، أنا لا
أبيع ربع كيلو.
ثم يلتفت إلى الداخل وينادي بصوته الأجهش العريض:
- تعال يا ولد، هات الخرطوم ورش الماء أمام المحل،
تعال اغسل الرصيف.
أتركه، وأهبط عن الرصيف، جلال يسأل:
- بابا، هذا البائع عصبي، لا يريد البيع، يريد عرض
البضاعة، للفرجة، ولماذا يتكلم على عمرك، أنا بدأت
أكره السوق.
أقطع الشارع عبر السيارات إلى الرصيف الآخر، لا
أعرف لماذا قطعته، الأسعار هناك لن تكون أقل، الماء ينداح
على الشارع، ويفمر طرفيه، ولدي يعلق:

- والله هذا إسراف، لماذا كل هذه المياه.

أرد:

- هذا لترطيب الجو، ومن أجل الخضر والفواكه،

حتى لا تجف.

أتجه فوراً إلى البائع أقول له:

- ضع لي نصف كيلو.

البائع، يغمغم:

- حسبني الله ونعم الوكيل، زبائن البسطات والعربات

بدأت تنزل من فوق، أخي، تكرم، والله لن تخجل،

سأبيعك ولو مئة غرام، ما كرمي لك، ولكن كرمي لهذا

الولد، أنا أعرف، أنا شاهدتك قبل قليل، أنت طلعت إلى

فوق ونزلت، أنا أعرف الولد اشتهى الكرز، وما أعجبه

الكرز فوق.

ويمد يده، يناول ولدي عوداً يحمل كرزتين، وهو

يقول:

- خذ عمي، خذ.

جلال يقول:

- شكراً يا عمي، لا أستطيع أكلها، تحتاج إلى غسل.

البائع يضحك، ويلتفت إلى غلام في داخل المحل، وهو

يقول:

- يا ولد، هات الخرطوم ورش الأرض، قبل ما تتشف،
واغسل هذه الكررات.

جلال يعلق:

- شكراً يا عمي، سأغسلها في البيت.

- كما تريد، احملها معك، للزينة، تفرج عليها، وفي
البيت اغسلها كما تشاء وكلها.

ونهبط، أنا أحمل الكيس وفيه نصف الكيلو،
الكيس من النايلون الشفاف، وولدي يحمل العود، تتدلى
منه كررتان.

صوت من جانبي ينادي:

- أبو جلال، أبو جلال.

وألتفت، وإذا غادة زوجة شقيق زوجتي في السيارة، في
مقعدها وراء المقود تشير إليّ بيدها، أقف، أحييها، وأجير
المحل يرش زجاج سيارتها الأمامي بالماء، والمساحات تتحرك
برتابة فوق الزجاج، وتسأل:

- ماذا اشتريت، أسعار هذا السوق غالية، لا تناسب
راتبك، حرام، اطلع إلى فوق.

أرى عينيها مصوّبتين إلى الكيس البلاستيكي الأبيض
الشفاف وفيه نصف كيلو كرز.

أهز رأسي، الدم ينفر من وجهي، تحمرّ أذناي، أحس
بهما تشتعلان، مرة أخرى أحس بوخزة في الجانب الأيسر من
صدري، أغمغم:

- أعرف.

وتلقت إلى جلال، تسأل:

- كيفك حبيبي جلال؟

ثم تنادي:

- جون، بسرعة يا جون، ما عدت أتحمّل الجو الحار.
وتتقدم منها صبية سمراء قاتمة السمرة، تحمل بضعة
أكياس، تسألها:

- كم دفعت؟

ترد جون:

- ألفين وخمسمئة.

تعلق:

- هاتي الأكياس ضعيفا معك على المقعد.

وتدخل جون في السيارة.

غادة تضيف:

- أبو جلال، تفضل لأوصلك إلى البيت.

أرد:

- شكرا، البيت قريب.

وترجع بسيارتها إلى الوراء قليلاً، تمدّ يدها من
النافذة، تضع في يد أجير المحل ورقة نقدية أظنها من فئة
الخمسين ليرة، وهي تقول لي:

- سلم لي على أم جلال، وقل لها أخوك يسلم عليك،
وقل لها: إذا احتاجت إلى شيء تتصل ...
وتمضي.

ويسألني جلال:

- بابا، بنتها عيونها متورمة، ولا تشبه أمها ولا خالي.
أضحك وأعلق:

- حبيبي، هذه خدامة من الفيلبين، ما هي ابنتها.
ويرد:

- لكن لما زارنا خالي في العيد ما كانت معه.

وأرد:

- الخدامة لا تصحبهم في زياراتهم، الخدامة تعمل في
البيت، وقد تصحبهم إلى السوق لشراء الحاجات، وإذا
صحبتهم، لا تنزل معهم، تظل في السيارة.

وأغمغم:

- وليتهم ما زارونا، لا في العيد، ولا في غير العيد.

جلال يسألني:

- ولماذا تتاديهما جون؟ هل هذا اسمها؟ وما هذا الاسم؟

أضغط على أصابعه بيدي، هذه المرة متعمداً، أقول له:

- لا تسألني، هكذا ينادي الأغنياء خدامهم، ما هو

اسمها، هو مجرد نداء، في كل لحظة يمكن مناداتها بأي

شيء: جان جون جين.

يلتفت نحوي ويسأل:

- بابا، يجوز هذا؟

*

عند آخر السوق، الذي أصبح الآن هابطاً، ونحن ننزل فيه، كان علينا قطع الشارع إلى الطرف الآخر، الماء ينداح من أعلى الشارع كالنهر، وعند نهايته يملأ جانب الرصيف، ويمشي في المسيل.

أنزل بقدمي عن الرصيف لأقطع الشارع، أمد رجلي إلى أمام قليلاً حتى لا يغطس حذائي في الماء الجاري عند طرف الرصيف، أجد كيس النايلون الأبيض الشفاف قد طار من يدي وتناثرت الكرزات على الشارع الذي كنت سأعبره

والسيارت أخذت تدوسه، وأنا ملقى على قفاي فوق
الرصيف، وجلال يصيح مذعوراً:

- بابا، بابا.

أرى ثلاثة شبان يسرعون نحوي، قبل وصولهم أكون
قد نهضت، يتقدم مني أحدهم، يمد يده إليّ، وهو يقول:

- سلامتك، سلامتك.

جلال ما يزال يصيح مذعوراً:

- بابا، بابا.

أقول له:

- حبيبي، الأمر بسيط، زلت قدمي بسبب الماء.

وأنظر إلى حيث وضعت قدمي، لا قشرة موز، ولا
قشرة برتقال، غريب، كيف زلت قدمي؟ لا أعرف، اختل
توازني من حيث لا أشعر، الحمد لله على كل حال، الحمد
لله، أنا، ولا جلال.

أحد الشبان الثلاثة يقول لي:

- عمي، سيارتي هناك على الرصيف المقابل، هل
أخذك إلى المستشفى لتصور ظهرك، أو رأسك، أنا مستعد،
لا سمح الله، لكل الاحتمالات، والدي هو صاحب
المستشفى، وأنا طبيب.

أنظر إلى بنطالي المبلل وأبتسم، وإن كنت في داخلي
أضحك مدهوشاً، وأقول له:

- شكراً، الحمد لله، لا أحس بأي ألم، ولا ضرورة
للمستشفى.

الشاب يضيف:

- سأوصلك إلى البيت.

- شكراً، شكراً، بارك الله فيك.

جلال ينظر إلى الكرز والسيارات المسرعة تدوسه
بعجلاتها.

أمسك يده بلطف، وبنطالي مبلل، وأنا أقول:

- لا تزعل، فداك، تعال سنرجع، بقي معي أربعمئة،
سأشتري لك كيلو كرز من أول بائع في السوق، ليتنا ما
صعدنا إلى فوق ولا نزلنا.

جلال يمسك يدي، يجذبني بشدة وهو يصيح والدموع
تملاً عينيه:

- لأ، بابا، أنت ما بقي معك غير ثلاثمئة ليرة، نسيت؟
أنت اشتريت نصف كيلو كرز، أعطيت للبائع خمسمئة،
ورد إليك ثلاثمئة، أنا انتهت إليه.

أمسح رأسه بيدي، وأقول:

- سأشتري نصف كيلو بمئتين، ويبقى معنا مئة، نرجع
بسيارة الأجرة.

جلال يجذبني من يدي، يشدني والدموع تملأ عينيه:
- لأ، بابا، لأ، سنرجع إلى البيت، سنرجع ماشيين،
مثلما جئنا، كرهت السوق، كرهت الكرز، ما عدت
أريد الكرز.

خارج حديقة الألعاب

في الفسحة أمام حديقة الألعاب باعة وملتسولون وأولاد
يتراكضون، ونسمات الأصيل في أواخر أيلول تنعش
أرواحهم. ولدي هادي يقول لي:
- بابا، أريد غزل البنات.

هدى عيناها معلقتان بتلك الخيوط الحريرية الملونة التي
تدور في الصحن أمام صانع غزل البنات، هديل تمسك يد
أمها وتشير إلى البائع، وهي تقول:
- ماما، أريد هذا.

وأمام بائع غزل البنات نقف، الصحن يدور وتتحوّل
ذرات السكر إلى غزلة من الخيوط الحريرية الناعمة.
زوجتي تناول هديل أولاً غزلة حمراء، تتأملها، لا تعرف
كيف تقضمها، هدى تأخذ غزلة زهرية اللون، هادي يأخذ
غزلة صفراء كالليمون.

أقول للبائع:

- اصنع لي اثنتين.

زوجتي تنظر إلى متسائلة، أقول:

- لي، ولك.

ترجع إلى الوراء، تضحك، تعلق:

- لا، لا، لا أريد، نحن كبار، أنا أخجل، لا أريد.

وأرد:

- لماذا الخجل؟ أنا أحبها، تذوب في الفم مثل الهواء.

وأناولها غزلتها، وأخذ في قضم غزلي، وأعلق:

- أوه، ما أهونها وما أسهلها؟ ليت الحياة تكون

كذلك، حلوة وناعمة وسهلة.. يا إلهي.

تمتد أمامي يد، أفاجأ، رجل يطلب صدقة، يده

الأخرى مقطوعة عند الرسغ، وقد رفع كم القميص عنها

ليظهر موضع القطع، ألتفت إلى زوجتي، أقول لها:

- أعطيه أنت.

وأدير وجهي، وأمشي، أحس بالضيق، لماذا يكشف

عامداً عن موضع القطع؟ هدى تسألني:

- بابا، كيف قطعت يده؟

أقول لها هارباً من السؤال:

- هل أشتري لكم كيس فوشار؟

هادي يرد:

- نعم، نعم، بابا.

هدى تعود إلى السؤال:

- بابا ما قلت لي: كيف قطعت يده؟

أجيبها:

- بالمستشفى، أو بحادث سيارة.

وتسأل:

- وكيف تقطع بالمستشفى؟ بالمنشار أم بالسيف؟

أقول لها، ونحن تقترب من باب الحديقة:

- ابقى هنا إلى جانب أمك، سأشتري لكم التذاكر.

أمام الكوة أقف أشتري أربع تذاكر، هديل معفاة،

هي ابنة أربع سنين، سيدة تقترب مني ومعها ولد، تقول

لزوجتي:

- الله يرزقكم، قولي لزوجك ليشتري تذكرة لابني،

دخله مع أولادك، اعتبره ابنكم، والله ما معي ثمن

تذكرة، والولد اشتهى.

المرأة في ثياب عادية، لا يظهر عليها آثار الفقر
والتسول، والولد كذلك، ألتفت إليها، أقول لها:
- يا أختي، في الحديقة ألعاب وسيارات كهربائية، قد
يقع، دخوله مسؤولية.
تضيف:
- الله يرزقك، أنت دخّله، واتركه وحده، ولا تسأل
عنه.

أناولها غزلة الحرير، أقول لها:
- خذي، أعطيه هذه الغزلة ليأكلها.
وتناولها زوجتي غزلتها، تقول لها:
- خذي، هذه لك.
المرأة تقول لزوجتي:
- الله يرزقك، أعطي الولد ثمن صندويشة فلافل، والله
من الصبح ما دخل إلى جوفه شيء.
أمد يدي إلى جيبي أناولها ورقة نقدية، المرأة تلح على
زوجتي:
- وأنت، الله يرزقك، ويحفظ أولادك.
زوجتي تفتح حقيبتها، وتناولها.

ومع دخولنا، أجد الولد قد انسل بيننا، وأصبح مع أولادنا، الموظف المسؤول عن استلام التذاكر في مدخل الحديقة، يسأل:

- الولد معكم؟

أنتبه إليه، أقول له:

- لأ.

الموظف يبعده عن المدخل، ونصبح في داخل الحديقة. الفسحة في الحديقة واسعة، والألعاب تمتد أمامنا، وثمة باعة في الساحة، كرات ومظلات للشمس وقبعات وهدايا وباعة فوشار وغزل البنات ومشروبات ومثلجات. الشمس تميل نحو الأفق الغربي ونسمات أيلول ندية والجو يشعرك بالانفتاح والانطلاق. هدى وهادي ينطلقان أمامنا، تتوسطهما هديل، كل منهما يمسك بها بيد.

هدى في الثانية عشرة، وهادي في العاشرة، وهديل في الرابعة، ما أحلامهم، زهور متفتحة، رؤيتهم في الحديقة أو في الشارع أو في زيارة قريب أو صديق تمنح النفس شعوراً مختلفاً عن رؤيتهم في البيت.

أحس أن هنالك في هذا العالم من هو جزء مني.

مرة اشتريت شجيرة ورد صغيرة في وعاء فخاري جميل،
بقيتُ أشهراً أرهاها، وأنا أنتظر تفتُّحَ الورد فيها، ولما ظهر
فيها أول برعم، جن جنوني من الفرح، طار عقلي، أحسست
أني صنعت شيئاً في هذا الكون.

أقول لزوجتي:

- هدى كبرت بسرعة.

زوجتي تعلق:

- البنت تنمو أسرع من الصبي.

وأسألهم:

- أشتري لكم صندويشات؟

هدى ترد:

- لأ، الألعاب أولاً، وبعدها الصندويش والكولا.

الأم تعلق:

- ثم المرطبات أخيراً.

هادي يضيف:

- سنبقى إلى منتصف الليل.

أعلق مازحاً:

- أنا وأمك وهديل سنرجع إلى البيت، ستنام أنت وأختك

هدى في الحديقة.

هدى ترد:

- الحديقة تغلق عند منتصف الليل، مثل قصر سندريلا.

أضيف:

- صدقت، وعلينا الخروج قبل دقائق الساعة، ونحرص
ألا يسقط حذاء أحدنا.

ومن الأرجوحة إلى الخيول الدوّارة، ومن سفينة نوح إلى
الطائرات العمودية.

أنا وهدى في طائرة عمودية، زوجتي وهادي وهديل في
طائرة، أشد مقبض الطائرة فترتفع، طائرتنا بمستوى طائرة
زوجتي، هي أمامنا، نرميها بقذائف الأضواء، فتعلو، فلا
نصيبها، ومن ورائنا تصيبنا قذائف ضوئية، فنهبط.

وعلى الأرض نهبط، ونحن نقول:

- الحمد لله على السلامة.

ونمضي إلى السيارات الكهربائية.

هدى وهادي وهديل في سيارة، والسيارات تصدمهم من
كل جانب، وهم يضحكون، ويأبون إلا الاستمرار في
اللعب، وشراء بطاقات جديدة، ولا يغادرون سيارتهم.

أفاجئ زوجتي، أشتري بطاقتين، ثم أشدها من يدها،
وأقعد معها في سيارة، ونمضي في الحلبة نصد السيارات

المهاجمة لسيارة أولادنا، ولكن لا أعرف كيف يأتيها الهجوم من هنا وهناك، اصطدامات مروّعة، وضحكات عالية، وشرر يتطاير من تحت السيارات، وأضواء تعلق وتخفت.

ما أحلى الانطلاق، وما أجمل الاصطدام، مع أنه مروّع، ويخض الجسم، ولكنه ممتع، هو مزاح ولعب، لا خطورة فيه ولا غضب منه.

ونمضي نحو بركة تسبح فيها إوزات مرحة، إوزات حقيقية حية، برقاب ناعمة، وهي تدفع الماء بأرجلها، والناس يلتفون حول البركة ويلقون بحلقات خشبية، من تسقط حلقاته في عنق إوزة له هدية، وثمة ثلاثة عمال يلتقطون بعصيّ طويلة الحلقات الساقطة في الماء، وما أكثرها، والإوزات لا تمكّن أحداً من أعناقها.

ونشتري بضع حلقات، نرمي أكثر من عشر حلقات، وتأبى هديل إلا أن ترمي حلقة، وترمي هدى حلقة، وإذا هي تطوق عنق إوزة، والإوزة تغط رأسها في الماء تريد التخلص منها.

ويناول صاحب البركة ابنتي قبعة قش كبيرة، يقول

لها:

- هذه هديتك.

ثم يناول هديل قبعة قش أخرى صغيرة.

وتعلق زوجتي:

- أريد الإوزة هدية لا القبعة.

ويرد مازحا، وهو يناولها حلقة خاصة صغيرة جداً بحجم

السواراة، وهو يقول:

- تفضلي ارمي هذه الحلقة، أدخلها في عنق الإوزة،

والإوزة لك.

ونضحك ثم نمضي نحو الناعورة التي تكاد تصل إلى

النجوم في علوها، وقد خيمت العتمة، وحل المساء، هدى

تعلق:

- لا بابا، أرجوك.

أرد:

- لا تخايفي، هي حُجرات مغلقة، آمنة، أنا وأنت وهديل

في حُجرة، وأمك وهادي في حُجرة.

ونسلم أصوات استغاثة، وجلبة ونرى الناس يسرعون

نحو طرف الحديقة.

أصوات تتصايح:

- الولد اختنق.

- رأسه انقطع.
- نادوا مدير الحديقة.
- اطلبوا رجال الإنقاذ.
الأولاد يذعرون. أقول لهم:
- قفوا هنا، لا تتحركوا.
وأدخل بين الجموع، ثم أرجع لأقول لهم:
- لا تخافوا، الأمر غير خطير، لكن أحس أنا بالذنب
والمسؤولية.

زوجتي تسألني:

- ولماذا؟

أرد:

- كان علينا دفع ثمن تذكرتين وإدخال الولد مع أمه.

زوجتي تسأل قلقة:

- قل لي ماذا حصل؟

- اطمئني، الولد نفسه الذي رأيناه مع أمه عند باب
الحديقة، أراد الدخول في العتمة من هذه الجهة، مدّ رأسه
بين قضبان السور الحديدي، وفاجأه الحارس، ولم يستطع
إخراج رأسه وقد انحشر بين القضيبين.

هدى تصيح وهي تبكي:

- بابا، بابا.

زوجتي تعلق:

- حارس، غبي، وحش.

أقول لها:

- لا، الرجل طيب، كان يقوم بواجبه بشكل طبيعي،
لكن الولد ارتبك، كل الناس شهدوا بذلك، والحارس
نفسه الآن يطمئن الولد ويعالج الموقف بهدوء.
ونسلم أصوات تصفيق، وينفضّ الجمع، ونقترب،
فترى الولد وأمه واقفين وراء قضبان سور الحديقة يتفرجان
على الألعاب من الخارج.

نساء الحافلة

دائماً أُسرِعُ في الصعود إلى الحافلة، أمضي إلى عمقها،
أقعد إلى جوار النافذة، وأمئى النفس بقعود سيده إلى
جوارى.

هنا في عمق الحافلة، في المقعد الأخير، يسهل الصيد،
ولا يمكن أن يتبّه إلينا أحد.

مرة قعدتُ إلى جوارى سيده، والتصقتُ بي، سُررتُ
كثيراً، وأخذتُ أقترُبُ بفخذي من فخدها، وأضغط، وهي
لا تمنع، ولكن تبّهتُ بعد قليل، إلى أنّ ما كنتُ أضغطُ
عليه لم يكن سوى حقيبتها الجلدية التي وضعتها هي بيني
وبينها، ومرة قعدتُ إلى جوارى سيده نحيلة جداً، وأنا نحيل
مثلها، ومع ذلك فقد انتحتُ بعيداً عني، حتى كان من
الممكن أن يقعد شخص ما بيننا، أحسستُ يومها بالضيق
الشديد منها، ومن طريف ما في الأمر أن رجلاً بديناً قعد
مرة إلى جوارى، والتصق بي، وكاد يخنقني، وسرعان ما

فتح جريدة، وأخذ يقرأ فيها، وبين لحظة وأخرى كان يقلب صفحاتها، فيأتي كوعه في صدري، ولما أردت النزول لم ينهض ليفسح لي المجال، بل تركني أمر أمامه وأنا أتعثر بقدمه، ومرة قعدت بجواري سيدة ووضعت طفلها الصغير بيني وبينها، وكان معه قطعة حلويات، وتناثر على أطراف سترتي فتات من الحلوى، وأمه لا تنبهه، بل كانت تسر لتماديه في مضايقتي، ومرة قعدت إلى جواري سيدة أكثر بدانة من ذلك الرجل، وكانت متعرقّة، وما تفتأ تميل عليّ، وتمد وجهها نحو النافذة، تحاول تتسم الهواء منها، وهي تنفحني أنفاسها اللاهثة، والعرق يسح على طبقات اللحم في عنقها، فما كان مني إلا أن نهضت، أخليت لها مقعدي، وقلت لها: "تفضلي اقعدي إلى جوار النافذة"، ومرة أيضاً قعدت إلى جواري صبية، تحمل دفاتر وكتباً تحتضنها إلى صدرها، هي طالبة جامعية، من غير شك، سررت كثيراً، وبدأت أقرب منها ببطء، وأنتظر انعطاف الحافلة حتى أميل عليها، ولكن بعد موقف أو موقفين، صعدت صبية في عمرها، تحمل كتباً ودفاتر، هي جامعية مثلها، فأشارت إليها، فأسرعت نحوها، هي على ما يبدو زميلتها، وتناولت منها ما كانت تحمله من كتب ودفاتر ووضعتها في حجرها، ثم اقتربت مني والتصقت بي بشدة وقالت لزميلتها:

"تعالى اقعدى إلى جوارى، المقعد يتسع، نحن الثلاثة من حجم واحد"، وقعدت زميلتها إلى جوارها، فالتصقت الأولى بي أكثر، بل أخذت تدفعني بكتفها، كأنها تريد الرمي بي من النافذة، ثم التفتت نحوي لتقول لي: "سامحني، ضايقتك، أنت مثل أبي"، وسرعان ما نهضت، أخليت لهما المقعد، ثم غادرت الحافلة، وأنا أحس بالقهر والضيق، ومن يومها غيرت من عاداتي، ما عدت أبحث عن مقعد خال، ولا أمضي إلى عمق الحافلة، بل بدأت أقعد إلى جوار رجل، وما عدت أتمنى قعود سيدة إلى جوارى، حتى إنى إذا رأيت مقعداً خالياً إلى جوار سيدة بدأت أتجنب القعود فيه.

لكن حدث مرة أن كنت في الموقف أنتظر، والتفتُ فرأيتها قادمة نحوي، وفي لحظة واحدة ابتسم كل منا للآخر، ووقفت هي بجوارى، من غير أن تكلمني، وأنا أحس بطيف الابتسامة لا يغادر وجهها، ومع قدوم الحافلة، دعوتها الصعود في الحافلة قبلي، بل وضعت كلتا يدي حولها، وتشبثت بطرف باب الحافلة، كي لا أسمح لأحد بالصعود وراءها، ثم صعدت مباشرة خلفها، وأنا أكاد ألتصق بها، وبصورة عفوية أشرتُ إلى المقعد الأخير في العمق، ففهمت قصدي، واتجهتُ هي إليه بكل رضا، وبصورة عفوية أيضاً، ثم دعوتها إلى الدخول في المقعد قبلي،

لتقعد هي إلى جوار النافذة، ثم قعدت أنا إلى جوارها، وسرعان ما التصقتُ أنا بها، كتفي لصق كتفها، وفخذي لصق فخدها، وساقِي تحتك بساقها، وهي لا تمنع، وماذا يمكنها أن تفعل، هل تخرج من النافذة، وهي محشورة إلى جوارها؟ بل أخذت أحك حذائي بحذاءها، وتمنيت في لحظة لو أخلع حذائي لأحك أصابع قدمي بساقها، ثم أخذتُ أضغطُ بكتفي على كتفها أكثر، وتوقَّد جسمي، أحسستُ كأن عملية نقل دم تجري بيني وبينها، أو كأن عملية شحن تجري بين البطارية في سيارتي إلى البطارية في سيارتها، كيمياء جسمي تفاعلت، حركة دوران دمي تغيَّرت، وتجراتُ فوضعتُ يدي على مسند المقعد وراء رأسها، أحطتُها بذراعي، وهممتُ بمداعبة خصلات شعرها، والتفتُ إليها أودُّ تقبيلها، فهمستُ: "لا تستعجل، في البيت نفعل كل شيء"، ثم أحسستُ أنها سوف تنهض، نهضتُ قبلها، فسحتُ لها الطريق، أحطتُها بكلتا ذراعي، أحميها من الزحام، لا أسمح لأحد بمسّها، وأنا أقول: "إذا سمحتم، افسحوا الطريق"، ونزلتُ وراءها، وفوراً تأبطتُ ذراعها، وسرنا متلاصقين، وأمام بائع الفروج اشتريت فروجة مشوية كبيرة مع الثوم والبطاطا والمقبلات، اشتريت زجاجة كولا سوداء كبيرة، وفي درج العمارة، وضعتُ بين

رائحتين: رائحتها ورائحة الفروج المشوي، وهي منصاعة
مستسلمة، حتى إنها حملت زجاجة الكولا بنفسها، ولعلها
كانت تحلم بأكثر مما كنت أحلم، وأحسست أنها تعدني
بأشياء وأشياء، وأمام باب الشقة، وضعت المفتاح في الباب،
وما إن انشق عني وعنهما حتى تراكض الأولاد نحونا وهم
يتصايحون:

- بابا.

- فروج.

- كولا.

- ما ما...ماما...ماما.

السكين على جانبي

من باب الجامع أخرج، أنا أول من غادر الجامع، لا أعرف كيف سأركض إلى البيت، أمشي بسرعة، أخبئ الضحكة، أرى يدي الاثنتين ملوثتين بالدماء، لا صابون الغار البلدي ولا صابون فاي الأجنبي يمكن أن يغسل عنهما آثار الدماء، هذه المرة دماء مختلفة، دماء بشر، لا بد أن أستهلك علبة غسل الصحون كلها، أتأمل جلاييتي البيضاء النظيفة المتألقة كالثلج، وأضحك، لا أحد في الشارع، لم يخرج بعد أحد من المصلين، ثمة أولاد يلعبون أحاول تفادي المرور بهم، حتى لا يروني وأنا أضحك.

لا أعرف كيف وجدت فجأة السكين إلى جانبي الأيمن، كالعادة، شمطتها من بيتها الجلدي، وأعملتها في عنق الرجل، عنقه غليظ، كالثور، لا أعرف لماذا قعد أمامي، سد كل شيء، كأنه حائط، والرجل الثاني إلى جوار ي زحمني، دفعني في كتفي، وإذا سكينني تحز

عنقه، لكن لا أعرف ما ذنب الرجل الثالث والرابع على يميني، ولا أعرف ما ذنب الرجال الخمسة الآخرين على شمالي، أنا عصبي، سريع النزق، ويدي لا تعرف سوى اللعب بالسكين، الدماء تنصب من أعناقهم، والسكون مخيم، وخطيب الجمعة على المنبر يرفع صوته ويشير بيديه.

يوم الجمعة هو أكثر الأيام بغضاً عندي، لا أحب يوم الجمعة، أستيقظ مبكراً، كعادتي، لا أستطيع النوم إلى الضحى كعادة أكثر الناس، هم كالغنم، لا يعرفون سوى الأكل والشرب والنوم، الغنم يأكل ثم يقعد ليجتر ما أكله، وهم يأكلون ثم يقعدون ليأكلوا مرة ثانية وثالثة، وفي الجامع يغلبني النوم، لا أعرف لماذا؟ الخطيب على المنبر وهو يشير بيديه، وأنا أحملق فيه، أفتح عيني على الآخر، أشد جفني، أحاول فهم ما يقول، لكن النوم يغلبني، السكون والهدوء والصمت والبرودة والهواء الناعم والنوافذ الواسعة المفتوحة والنور الهادئ المناسب منها أحس بها جميعاً مثل جلد خروف صغير ناعم أستلقي فوقه فأنام، هنا أرتاح، لكن، هي عشر دقائق، وتمضي، وأرجع من الجامع، وبعد ذلك تبدأ المشكلة من جديد، إلى أين سأذهب؟ السوق مغلق، المحلات مغلقة، ماذا سأفعل؟ يداي لا تفعلان أي

شيء، أحس أنني مقيد، مشلول الحركة، لا أعرف ماذا أفعل؟ هل أفرم البصل في المطبخ مع زوجتي؟ هل أخطف قطتها المدللة وأمضي بها إلى الشرفة وأذبحها وأتخلص منها؟ ألا تكفيني قطلط السوق، هو خطئي أنا، كل يوم أجلب لقطتها أشهى طعام، لم تذق مثله قطلط البلد كلها، نسيت أن أحكي لزوجتي، مر على زواجنا عشر سنوات، حكيت لها عن كل شيء في حياتي كلها، لكن ما حكيت لها، وأنا في العاشرة، رجعت إلى البيت من اللعب في الشارع مع الأولاد، لم يكن في البيت غير جدتي، أمي وإخوتي ذهبوا إلى بيت خالي لمعايذتهم، أبي لم يذهب معهم، أبي كان ما يزال يذهب إلى بيوت الأغنياء، يذبح لهم أضحيات العيد، وكنا يومئذ في اليوم الثالث، ما أزال أذكر بالتفصيل، كيف أمسكت قطة الدار، وأسرعت بها إلى المطبخ، استللت السكين، وضعت القطة على الأرض، وضعت قدمي فوق عنقها، وحززت عنقها، وهي تموء، وإذا جدتي في الباب تصيح: ماذا تفعل؟ حرام هذه قطة، وانتبهت، الحمد لله لم أذبحها، من عجلتي وتسرعني كنت أضع السكين بالمقلوب، شفرة السكين لم تكن فوق عنقها، أخذتني جدتي بين ذراعيها، وقالت لي: "انتبه يا ولدي إلى دروسك، الدراسة أفضل لك، لا أريد لك هذه المهنة"، لا أنسى تلك

الأيام، طوال أيام العيد ما كنا نرى وجه أبي، من حي إلى حي، وهو يذبح الأضحيات، في هذه الأيام ما عاد أحد يذبح، حتى الأغنياء، ما بقي غير التضحية بأولادنا مثل إبراهيم الخليل، ولن ينزل علينا كبش الفداء.

أصل إلى العمارة، أسيطر على نفسي، أمنعها من الضحك، أصطنع الجد، تفتح لي زوجتي الباب، أصيح بها: - أنت المسؤولة، كيف تركتني أخرج إلى الصلاة بجلاية الشغل، والسكين إلى جانبي، انظري إلى يدي الاثنتين.

تنظر مدهوشة، تحاول الكلام، أصيح بها: - لا تتكلمي، انظري، ذبحت عشرة رجال أو عشرين، ما أعطيتني الجلاية البيضاء، جلاية صلاة الجمعة. تحدد بي، تنظر مدهوشة، وهي تقول: - يا رجل، انظر إلى المرأة. أصيح:

- لا امرأة، ولا أي شيء، أنت انظري إلى يدي المملختين بدم الرجال، الحمد لله، ما رأني أحد وأنا في الطريق. تتكلم:

- يا رجل، أنت والله في جلابيتك البيضاء، جلابية يوم الجمعة، ولا نقطة دم على يديك.

وأضحك، أضحك، أنفجر في الضحك، ألتفت إليها، وأنا ما أزال أضحك، وأقول لها:

- اسمعي، سرقتني غفوة صغيرة، وأنا في الجامع، فرأيت نفسي ذبحت عشرة رجال عن يميني وعشرة عن يساري، وانتابتني نوبة من الضحك، غادرت الجامع بسرعة، حتى قبل أن أتم صلاتي.
تضحك، تعلق:

- الحمد لله ما ذبحت الإمام.

أكف عن الضحك، ينتابني القلق، أصمت، ألتفت إليها، أستند على كتفها، أقول لها:

- سامحيني يا ندى، أبغض الأيام إلى نفسي هو يوم الجمعة، لا أعرف ماذا أفعل، أحس بيدي الاثنتين مشلولتين، أحس أنني لا أعمل، لا أفعل أي شيء.

تعلق:

- اطمئن جاءك عمل.

وما هو:

- اتصل بي وأنت في الصلاة رجل.

- هل هو من زبائني؟ ما اسمه؟ ماذا يريد؟

- ما أعطاني اسمه، لكن أعطاني رقم هاتفه وعنوانه،
كان نذر إذا جاءه مولود ذكر أن يذبح.
أسألها مماًزحاً:
- وهل سيذبح الولد.
تضحك، تعلق:
- بالطبع لأ، سيذبح له خروف النذر.
أخلع الجلابية البيضاء، أقول لها:
- هاتي جلابية العمل، ولا تتسي السكين، ضعيتها على
جانبي الأيمن.
وأنا أهم بالخروج، أغمغم:
- الحمد لله، جاء الفرج.
وألتفت إلى زوجتي وأقول لها:
- والله لولا هذا الرجل لكنت ذبحتك أنت وقطتك، لا
بد كل يوم من اللعب بالسكين، يدي معتادة، اليوم الذي لا
أذبح فيه لا أحس بوجودي فيه.
تسألني:
- بالله عليك، قل لي: كيف يطاوعك قلبك فتذبح
الخروف.
أقول لها:
- عندما أرجع، أحكي لك، سأذبحك أنت وقطتك.

زغردة طويلة

الساعة تشير إلى الرابعة عصراً وأبو نديم لم يرجع من
وظيفته، ليس من عادته التأخر، ولا سيما يوم الخميس،
فهو ينصرف قبل ساعة، في الثانية والنصف، لا في الثالثة
والنصف.

وتحاول طمأنة نفسها.

لعله مر بالسوق لشراء الطعام، واليوم هو أول الشهر،
بل لعله تأخر حتى يقبض كل الموظفين في المؤسسة
رواتبهم، ثم أراد الاطمئنان، فأخذ يجري كشفاً بالحساب،
ويراجع الجداول، بعد انتهائه من تسليم الرواتب، ولكن من
عادته أن يراجع السجلات والدفاتر في البيت؟

وتشير الساعة إلى الثامنة مساءً، إلى التاسعة، إلى
العاشرة.

وتحاول مرات عدة الاتصال بهاتفه الجوال، لكنه
مغلق.

وتتصل بابنها بشير:

- أبوك لم يرجع إلى البيت، الساعة الآن الحادية عشرة، ولم يتصل، وليس من عادته التأخر.
- لعله تزوج.

تضحك ببرود، وتقول:

- أبوك ما عاد ينفع في شيء، وصل إلى الستين، لو أراد الزواج لتزوج قبل عشر سنين.
وينتصف الليل، وتتصل بابنها عدنان، ويأتيها الرد ساخراً:

- لعله شارك في مظاهرة فاعتقل.

وتضحك ببرود، وتعلق:

- أبوك ليس من هذا النوع، طوال عمره ما تكلم على السياسة.

وتفكر في الاتصال بأخواته الثلاث، وإخوته الأربعة، ولكنها لا تريد نشر الخبر في الأسرة.

وهو لا يزور إخوته ولا أخواته إلا في الأعياد والمناسبات الضرورية، وطوال حياته لم ينم خارج البيت.

في صباح اليوم التالي تتصل بابنتها الوحيدة منى، وتخبرها بغياب أبيها عن البيت.

وتعلق البنت مازحة:

- لعله حمل حقيبة الرواتب وفر بها إلى خارج البلاد، في
الشهرين الماضيين كان يتكلم على الديون المتراكمة عليه.
ينفجر القلق في رأس أم نديم، وتعلق ساخرة:
- أبوك جبان، يموت ولا يهرب، وما عنده جواز سفر.

وتشور الشكوك في نفسها. لعله اختطف، وقاده
المختطفون إلى شقة وقيدوه وأغلقوا جواله، أو سرقوا
جواله، أو قادوه في سيارة إلى خارج المدينة وقتلوه.

وتتصل بابنها بشير، وترجوه السؤال عن والده في
المستشفيات أو في مخافر الشرطة، هل بلغهم أحد عن
جريمة قتل أو اختطاف أو سرقة.

ولكن ابنها بشير يقابلها ببرود ويقول لها:

- انتظري إلى بعد ظهر هذا اليوم، لعله ذهب إلى أحد
المساجد واعتكف فيه، وسيرجع بعد صلاة الجمعة.

أم نديم ترد بسخرية:

- أبوك لا يصلي لا العيد ولا الجمعة ولا يعرف باب
المسجد، الله يرضى عليك، اذهب إلى المشايخ واسأل عنه.

وتعيد الاتصال بابنتها، وتقول لها:

- الله يرضى عليك يا بنتي، زوجك صالح، ما شاء الله،
عنده كثير من المعارف والأصحاب، ويده تطول، اطلبي منه
السؤال عن والدك.

وترد البنت:

- زوجي ذهب إلى زيارة أمه، كل يوم جمعة يصلي في
المسجد بجوارها، ويتناول غداءه عندها، ولا يرجع حتى
العصر، أنا سأصرف.

بعد ساعة تتصل بها ابنتها منى، فتقول البنت:

- أنا اتصلت بمديره، أبي ذهب إلى البنك ليقبض
الرواتب، وقبل نهاية الدوام اتصل أبي بالمدير وأخبره أنه لم
يسحب رواتب الموظفين، وأنه لن يرجع إلى الوظيفة،
سيذهب إلى البيت.

أم نديم ترتاح قليلاً، تطمئن نفسها.

الحمد لله، لم يسحب رواتب الموظفين، فلا توجد
جريمة قتل ولا اختطاف ولا سرقة ولا هرب إلى خارج البلاد،
أنا أعرف، أبو نديم لا يفكر في مثل هذا، طوال عمره ما
جرحني بكلمة، ولا غضب مني، هو مسالم محايد،

اشتھت لو مرة واحدة صرخ في وجهي، النملة إذا رآها لا يدوس عليها، فكيف يسرق الرواتب ويهرب؟ لكن إذا كان لم يقبض الرواتب، كما قال هو للمدير، ولم يرجع إلى الوظيفة، فأين ذهب؟ هل أصيب وهو في الطريق بجلطة؟ هل ضربته سيارة؟ هل تزوج؟ هل عنده امرأة أخرى؟

مرة قال له ابني عدنان وهو يشير إلى مغنية في التلفزيون: "والله النفس تشتهي امرأة من هذا النوع، ما رأيك، يا أبي؟"، ونظر إليه، وقال له: "احتشم، أمك قاعدة"، وأنا علقت حينها وقلت: "أبوك ما عاد ينفع لشيء"، يومها نهض ومضى إلى غرفته ونام، الحقيقة ندمت، على ما قلت، لكن ابني عدنان أثار غضبي، وقال: "أنت يا أمي، سامحيني، كلامك شديد القسوة على أبي، كلامك كله عتب ولوم، قبل يومين في السهرة شكنا من قلة الرواتب، وأنت قلت له أمامنا: أنت غشيم، لا تعرف كيف تدبر أمورك، ونظرنا كلنا إليه، صمت، ما حكى أي كلمة، وبعدها قلت له: عندك أكثر من مئة وخمسين من الموظفين، إذا اقتطعت من راتب كل موظف مئة ليرة، زاد راتبك ألف وخمسمئة، كنا عشنا في نعيم، أنا أعرف، أنت تعطي الموظف راتبه بالتمام والكمال، لا تقتطع لنفسك من راتبه أي ليرة".

وهذه هي الحقيقة، أبو نديم دقيق في الحساب، لكن لا أعرف لماذا لا يقتطع لنفسه من راتب كل موظف مئة ليرة على الأقل، حتى إذا كان في الراتب أقل من عشرين ليرة أعطاه إياها، لا أعرف، هل هذا عن عزة نفس؟ عن إباء وكرامة؟ عن تدين وخوف من الله؟ الحقيقة لا أعرف لماذا عفة النفس هذه؟ أظن هي مجرد جبن وخوف حتى لا يتكلم أحد عليه.

ويمر يوم الجمعة بطوله، عند المساء، تتصل بابنتها منى:

- منى، اليوم الثاني يمر وأبوك ما رجع إلى البيت، قولي لي ماذا أفعل؟ هل رجع زوجك إلى البيت؟ اطلبي منه فعل أي شيء.

وترد منى:

- صالح الآن نائم، سأحدثه فور استيقاظه.

وتصمت ثم تضيف:

- والله، يا أمي، أنت السبب.

وتسأل مستكبرة:

- كيف؟

- نسيت؟ الأسبوع الماضي، مثل هذا اليوم، الجمعة،
كنا عندك أنا وأخي بشير وأخي عدنان، قلت له: الفرن
الكهربائي تعطل، خذه غداً إلى المصلح، وقال لك: غداً
السبت عندي عطلة، لا أحب الخروج من البيت، أريد
الراحة، هل تذكرت ماذا قلت له؟
- والله نسيت، ذكريني.

- قلت له أنت ما عدت تقدر على شيء، أنت تقاعدت
قبل ما تتقاعد، واحمر وجهه، نهض، مضى إلى الشرفة،
وما نطق بأي كلمة.

أم نديم تغلق سماعة الهاتف، وتغمغم:

- إلى جهنم، وبئس المصير، غداً يخرج من مخبئه
ويذهب إلى الوظيفة، يخشى غياب يوم، لا بد، سيلتحق
بالوظيفة، لكن غداً السبت عطلة، لا بأس، سأنتظر إلى
الأحد.

وفي صباح اليوم التالي، السبت، يرن الهاتف، ويأتيها
صوت:

- أنا مدير المؤسسة التي يعمل فيها زوجك، اتصلت
اليوم بمدير البنك، زوجك سحب رواتب كل الموظفين.

وترد:

- لكن اليوم عطلة.

- أعرف، مدير البنك يداوم بشكل خاص مع بعض الموظفين.

وتسأل:

- لكنه أخبرك أنه لم يسحب...

يقاطعها:

- كذب عليّ، كذب، حتى يهرب بالرواتب.

- وإلى أين هرب؟

- أنا لا أعرف، هو زوجك وأنت أدري به مني.

ويصمت ثم يسألها:

- هل رجع زوجك إلى البيت وخبأ المبلغ كله؟

- أنا سألتك عنه وأخبرتكَ عن غيابه.

- لعلك متفقة معه.

- أنا؟ لا أنا ولا زوجي من هذا النوع، وزوجي طول عمره ما فكر بسرقة ليرة، وبصراحة، لا عن دين ولا تقوى ولا عن أخلاق، لكن عن خوف، أقول لك بصراحة، زوجي ضعيف جبان.

- لا أقتنع بهذا الكلام، سأطلب من الشرطة تفتيش المنزل.

- تفضل، أنت والشرطة، زوجي ما رجع إلى البيت.
وتتصل بابنتها منى:

- منى، حبيبتي، تعالي إلي، هاتي بنتك دلال معك،
المدير سيحضر الشرطة لتفتيش المنزل.

وتخبرها بما قاله المدير، البنت تعلق:

- لا أصدق، أبي يكذب على المدير، ويقول له ما
سحبت الرواتب؟

وترد الأم:

- هذا هو كلام مدير البنك لمدير المؤسسة، ومدير
البنك لا يكذب، وما معنى هذا؟ أبوك كذب على المدير.

وتأتي البنت إلى بيت أمها السبت مساءً، تنام عندها مع
زوجها صالح وابنتهما دلال.

صالح يقول لها:

- اطمئني، عمي أبو نديم لم يغادر البلد، أنا لي
أصدقاء في الأمن، ضربوا على اسمه في الحدود، فلم يجدوا
له أي اسم، إلى أين سيهرب بالرواتب؟ لا أتوقع هذا من
عمي.

في الصباح يغادر صالح إلى عمله، وتقع الأم مع ابنتها وحفيدتها، تنتظر قدوم الشرطة للتفتيش، وهي لا تعرف ماذا تفعل.

وتتصل بابنها بشير:

- أرجوك، بشير، اتصل بالمشايخ، اسأل عنه.

- اتصلت، وسألت، وزرت أحد المشايخ ورأيت جثة رجل

ضربته سيارة، ما هو أبي.

تعلق الأم:

- الحمد لله.

حتى الثانية بعد الظهر لم تحضر الشرطة، ولا المدير

اتصل، ويحضر بشير وعدنان، يلتم الأولاد حول الأم.

ويتكلم بشير:

- بدأنا نقلق، هناك مشكلة.

وتعلق الأم:

- الآن بدأ القلق على أبيكم؟ الآن صار مقامه مقام

الأب؟! طول عمركم ما أحسستم أنه أب، لا يعرف الواحد

منكم غير طلب المصروف، وبعد زواجكم، ما عاد أحد

منكم يفكر فيه، ولا يسأل عنه.

وتعلق البنت:

- وأنت يا أمي، دائماً، هذا هو كلامك له: أنت غشيم، أنت لا تعرف كيف تدبر أمورك، الأموال بين يديك ولا تفعل أي شيء، كل المحاسبين أعضاء في لجان الشراء، وكل واحد منهم له نسبة، وأنت ماعرفت كيف تدخل في أي لجنة، عشنا حياتنا كلها معك في فقر، هذا هو كلامك دائماً معه.

الأم تصيح بابنتها:

- يكفي، يكفي، أقول لك الحقيقة، ولا تزعلي....

- تفضلي

- نعم، أبوك...ماذا أقول

- قولي

- ما هو رجل

عدنان ينهض غاضباً، ويقول:

- وهل نحن أولاد حرام، أولاد زنى؟

الأم تصيح:

- لأ، هو رجل في الفراش، لكن ما هو رجل في

المجتمع، مع الناس.

منى تعلق:

- وهل الرجل في نظرك من يقتل ويسرق ويزني؟
- لأ، لكن على الأقل، لا أعرف ماذا أقول، لو كان
يتحرك في المجتمع... بين الناس.. يأخذ ويعطي.

بشير يعلق:

- من يوم زواج أختي منى من صالح تغيرت أمي، ما عاد
أبي يعجبها.

منى تضيف:

- طبعاً، صالح تاجر، ويده تطول، وعنده علاقات
واسعة، وقادر على التصرف، وهو كريم، غمرنا بخيراته،
لكن مقارنة أبي به جريمة لا تغتفر، أبي موظف محدود
الدخل، ولا يستطيع فعل شيء، كان الله في عونته.

ويعلق عدنان:

- والله أمك يا منى هذه هي، دائماً تقسو على الوالد
بالكلام، الله يكون في عونته، كما قلت، موظف ودخله
محدود، ماذا يفعل؟

أم نديم تلتفت إلى عدنان وتسخر منه قائلة:

- الآن أشفقت على الوالد، ماشاء الله؟ ونسيت أنت أول
من كان يلاحقه بالطلبات حتى بعد زواجك، ما استراح
منك.

ويقرع الباب، ويدخل صالح ليقول لهم:
- أنا قمت بجولة على شركات النقل الداخلي، كلهم
أصحابي، فعرفت أنه سافر الساعة الثانية عشرة من ظهر
يوم الخميس إلى الساحل.
الأم تعلق:

- الآن فهمت، هذا أخذ رواتب الموظفين وراح إلى البحر
ليمضي يومين ثلاثة، دائماً كان يقول لي: "والله أشتهي لو
أمضي أربعة أيام أو خمسة في ضيافة أحد، أو في فندق، أو
في مستشفى، أرتاح من البيت والشغل والعمل والوظيفة
والدوام ومن الدنيا كلها"، هذا كلامه دائماً، الآن عرفت،
فعلها أبو نديم، لكن بأي وجه سيرجع ليقابل المدير
والموظفين، وكيف سيدفع لهم الرواتب؟

ويعلق صالح:
- لا تقلقي، أنا سأدفع كل ما يترتب عليه، فور عودته،
أنت ادعي الله له العودة بالسلامة.
تغمغم:
- الله لا يردده.

ويرن جرس الهاتف:

وتسرع الأم إلى الهاتف، ويأتيها صوت المدير:

- هل ذكر زوجك مرة اسم نوال؟

وتسأل بحدة:

- نوال، من نوال؟

المدير يتكلم:

- أنا أسألك: هل ذكر زوجك مرة هذا الاسم، هل بين

أوراقه صورة لنوال أو أي امرأة؟

- زوجي طول عمره ما ذكر اسم غير اسم أمه، لا نوال

ولا منال ولا جلنار، لكن من نوال؟

المدير يرد بإيجاز:

- موظفة، عندنا، انصرفت يوم الخميس قبل ساعتين،

واليوم الأحد ما جاءت إلى الدوام، وسألنا أمها، قالت:

ذهبت مع زميلاتها في المؤسسة في رحلة إلى البحر، وما أحد

تغيب اليوم عن العمل، غير هي وزوجك.

وتسأل:

- وهل كان عندكم رحلة إلى البحر؟

- لا رحلة ولا أي شيء.

- وهل هربت معه؟

- طبعاً، هذا واضح، زوجك قبض رواتب الموظفين،
وهرب مع موظفة صبية بعمر بناته، هي دون الخامسة
والعشرين، ولولا سمعتها السيئة ما هربت معه.

- وكيف توظفت وسمعتها سيئة؟

- هي موظفة بعقد مؤقت لستة أشهر، وكنا على وشك
إلغاء عقدها، ولا أعرف كيف هربت معه؟

وتلقت إلى أولادها، تلخص لهم مضمون الاتصال،
وتعلق:

- طوال عمره ما ذكر أي موظفة، وماذا سيفعل معها
في البحر؟ وهو لا يعرف السباحة؟
البتت تضحك:

- لن يسبح في البحر يا أمي، سوف يسبح في الفراش،
بيدو كلامك جعله يصير مثل الرجال.
الأم تنظر إليها بحدة:

- ومع صبية أصغر منك، المدير قال هي دون العشرين؟
البتت تعلق:

- هي تعلمه السباحة.

الأم تضيف، وكأنها تكلم نفسها:

- وقال: هي سيئة السمعة، للأسف، ما عرف غير الهرب

مع واحدة سيئة السمعة، على الأقل لو هرب مع واحدة سمعتها جيدة، وبنيت ناس.

البنيت تعلق:

- بنت الناس لا تهرب مع رجل في الستين، ولولا...

صالح زوج منى يقاطعها ويتكلم:

- أرجوكم، ليس الآن وقت هذا الكلام، أنا ذاهب إلى

السوق لإحضار طعام جاهز، لن نبقى بدون غداء.

ابنته دلال وهي في الخامسة من عمرها تتعلق به،

وتقول:

- بابا، خذني معك، أنا أريد فروجة مشوية، بابا خذني

معك.

الجدة تعلق:

- امسكي يد والدك، لا يهرب منك، مثل جدك.

منى تعلق:

- أنا أعرف زوجي، وأنا طول عمري ما قلت له كلمة

قاسية.

صالح يخرج مع ابنته دلال، الأم تصيح بابنتها:
- الله يفضب عليك، أعرفك، أنت وإخوتك، دائماً
ضدي.

عدنان يلتفت لأخيه وأخته يقول لهما:
- الأفضل ترك أمنا وحدها، أنا نصيحتي تعالوا، ليرجع
كل منا إلى بيته، وجودنا يزيد الأزمة، ولا ينفع في شيء.
بشير يعلق:

- صدقت، الآن عرفنا كل شيء، واستراح بالنا، الوالد
الحمد لله بخير، وبعد يومين يرجع إلى وظيفته، بعدما يمل
من البحر.

عدنان يضيف:
- أنا لا أتوقع بعد يومين، قل بعد أسبوع، بعد ما ينضد
كل ما سرق من رواتب.

ويغمز بعينه نحو أمه، ويقول:
- وبعد ما يمل من التي اسمها منار، منال، نوال، والله
نسيت اسمها، ويشتاق إلى أمي، حتماً سيرجع، وصالح، زوج
أختي، سيتكفل بكل شيء.
الأم تعلق:

- روحوا، الله معكم، أنا لي رب لا ينساني، أنا
أعرف، أنتم وأبوكم سواء، لا يرتجى منكم أي خير.

البنـت تلتفت إلى أخويها ، تقول :

- لا ، يا عدنان ، ولا يا بشير ، نحن سنبقى ، لن نترك
أمننا ، ولن نتخلى عن الأب ، يجب الاطمئنان عليه ، هناك
مشكلة أكبر من الرواتب ومن تلك الموظفة ، لا أحب ذكر
اسمها ، لن نترك أمننا ، انتظروا على الأقل إلى الليل .

الأم ترفع يديها إلى السماء ، تدعو الله :

- يا رب ، يرجع أبو نديم بالسلامة ، ولو كان تزوج هذه
الموظفة التي اسمها نوال .

البنـت تضحك وتعلق :

- يا أمي ، أنت كل ساعة في حالة .

الأم تضيف :

- لبيته يرجع ، وأنا أعرف كيف أدبر أموري معه ومعها ،
والله لن أتركه يهنأ بالعيش معها .

بشير يعلق :

- لا تخافى ، هو ما تزوجها ، هو ذهب معها هكذا ...

ويشير بيده إشارة تدل على الهرب والحرام .

أم نديم تدق صدرها بيده مدهوشة وتعلق :

- أخذها ليزني معها؟ غير معقول .

بشير يعلق ساخرأً:

- وهل المعقول عندك زواجه من صبية دون الخامسة
والعشرين، وهل الأفضل بالنسبة لك زواجه من بنت سيئة
السمعة؟

ترد بعفوية:

- لأ، لا أريد له الزواج، ولو كانت بنت ناس، ليزن،
الله يحرقه بناره، هو وهي.

يقرع الباب، وتسرع الأم إلى فتحه، وإذا ضابط وثلاثة
رجال من الشرطة، يسرع عدنان إلى مقابلتهم.

الضابط يريه ورقة في يده، ويسأل:

- هذا منزل شهاب الدين؟

- نعم.

- اسمح لنا، معنا أمر بتفتيش البيت.

ويشير إلى الأم ويقول:

- أنت، ولاشك، زوجته.

وتصيح:

- نعم، أنا زوجته، والله زوجي غايب عن البيت من يوم

الخميس.

ويتكلم الضابط:

- أعرّف، أريد أن تدليني على صندوقه وخزائنه وأوراقه الخاصة.

- قلت لك زوجي ما رجع إلى البيت من يوم الخميس، وما وضع في البيت أي شيء من رواتب الموظفين.

- أعرّف، نحن لن نفتش عن المال، سنفتش عن صور أو رسائل أو أي شيء يتعلق بنوال.

- نوال؟

- نعم، نوال، زوجك سافر معها إلى البحر، ونزل معها في الشيراتون، واليوم صباحاً دفع الحساب وقال لهم زوجتي نائمة لا توقظوها، دفع في ثلاث ليال رواتب كل الموظفين، وغادر الفندق، وبعد خروجه وجدوها في الغرفة مذبوحة.

وتصيح الأم:

- ولي، زوجي أنا، تزوج وقتل زوجته، هذا كله في يومين أو ثلاثة، الله لا يوفقك يا شهاب الدين يا كذاب، يا شهاب الكفر، الله يحرقك بنار جهنم.

البتت تعلق متسائلة بدهشة:

- هربها معه وذبحها؟ مسكينة، ما ذنبها، مستحيل، أبي لا يفعلها.

الضابط يرد على البنت:
- الواقعة ثابتة، وعندنا الصور.
ثم يلتفت إلى الأم ليقول لها:
- دليني على خزانته وأوراقه.
تضحك، تعلق:
- والله لا أصدق، زوجي يهرب مع صبية دون الخامسة
والعشرين، يتزوجها ويقتلها، ادخلوا ففتشوا البيت كله، لن
تعثروا على صورة لا لنوال ولا منال.
البنت تجهش في البكاء، وهي تكرر:
- والله لا أصدق، مسكينة، وأبي مجرم؟ رضينا بهربه
معها، لكن لماذا يذبحها، ما عدت أفهم، ياربي...
ويرن الهاتف اللاسلكي الذي يحمله الضابط، يرفعه
إلى أذنه، يتكلم، ثم يلتفت إليهم ليقول للزوجة:
- زوجك رمى نفسه من الشاطئ إلى صخور البحر،
ونزل على رأسه، رآه كل الناس، وجثته الآن في المشرحة.
ويلتفت إلى الأولاد ليقول لهم:
- من الضروري سفر واحد منكم، واضح أنتم أولاده،
لإحضار جثته.

منى تنفجر باكية، تلقي برأسها على كتف أخيها
بشير، يضمها إليه.

ويدخل صالح مع ابنته وهو يحمل الفروج، يسأل
الضابط:

- عندك خبر جديد؟

الأم تهتف:

- نعم، كل جديد، هات الفروجة حتى نأكل ابتهاجاً
وفرحاً، زوجي صار مثل الرجال عن جد، زوجي شهاب
الكفر: سرق وزنى وقتل ثم انتحر، هات الفروجة هات،
وتعالوا غنوا وارقصوا، وكلوا معي، حتى أنت حضرة
الضابط، لك مني البشارة.

وتطلق زغرودة طويلة.

ثم تشهق بالدموع، والبكاء يخنقها.

الصمت

دخلتُ إلى مكتب الشركة، سألت الموظف المسؤول
عن الحجز إن كان لديه مقعد شاغر في أقرب رحلة،
فأجابني:

- أقرب رحلة بعد ساعتين، وسأحجز لك فيها في المقعد
الأول.

أجيبته:

- لكنني مضطر الآن إلى السفر، ولا يمكن أن أمضي
ساعتين في الانتظار، أعرف خطئي، كان الواجب أن أتصل
بالحاتف لأحجز، لكن صدقني...وأنا في هذا العمر، أرجو
مراعاة

وصمتُ، لا حظتُ أنه يتأملني بنظرة متفحّصة، وبدا
على ملامحه شيء من التردد، فقلت متحمساً:

- الشركة تحتفظ بمقعد أو مقعدين، بحسب علمي،
على سبيل الاحتياط لمسافر مهم أو مستعجل، أو عجوز
مثلي.

يصمت، ثم يتكلم مبتسماً:

- عندي مقعد في الصف الأول وراء السائق، لكن إلى جوار راكب متفرد، فرنسي، يعرف القليل من العربية، دفع أجرة مقعدين، ولا يريد ركوب أحد إلى جواره، هوزيون المكتب، يسافر كل ثلاثة أشهر مرة، اسمح لي، سأكلمه، ثم أعود إليك.

ويغادر مكانه في مكتب الشركة، أراه يتجه إلى الحافلة، يصعد فيها، وبعد قليل يرجع.

يقول لي:

- كلمته، لكن، أرجوك، لا تكلمه، ولا تتحدث إليه، هو فرنسي، كما قلت لك، يعرف القليل من العربية، بصراحة، أدهشني، وافق بسرعة، قلت له راكب عجوز، وأنيق، ونظيف الثياب، ومحترم، ولا تؤاخذني، لا أعرف كيف وافق بسرعة، من عادته ألا يوافق.

وأتخذ مكاني في المقعد خلف السائق إلى جواره، وهو إلى جوار النافذة.

هو نحيل مثلي، بل أكثر نحولاً مني، تدلُّ قدماه على طولته، وهو يضع رجلاً فوق رجل، يضع على عينيه نظارة

سوداء قاتمة، وجهه صارم، ملامحه قاسية، يرتدي بدلة أنيقة، ربطة العنق معقودة بدقة، الحذاء لامع، وفي يده كتاب، الكتاب مغلف بورق بني قاتم، لا يشف عن شيء. اتكأت على مسند المقعد، مبتعداً عنه قدر المستطاع، ولم أُلْقِ عليه التحية، وسكنتُ في موضعي، ولم أتحرك، حتى إني حبست أنفاسي، بل إني التفتُ بوجهي بعيداً عنه. وانطلقت بنا الحافلة.

لم يفتح الكتاب، ولم يقرأ فيه، ولم يلتفت نحوي. وأنا لم ألتفت نحوه، كنت أتأمل الطريق، وليس من عادتي أن أحمل معي في سفري كتاباً لأقرأ فيه، فأنا لا أحب القراءة في الحافلة، حياتي كلها قائمة على القراءة، هي حرفتي، لذلك أحب تأمل الطريق في السفر، والاستمتاع بانطلاق الحافلة.

وبعد ساعتين، بلغنا مقصفاً، اتجهت إليه الحافلة، ووقفت فيه للاستراحة.

ونفضت من موضعي، تتحيتُ جانباً، وأشرت بيدي للرجل بجواري، أدعوه للنزول قبلي، وتحاشيته، وهو يمرُّ أمامي، حاملاً كتابه بيده اليسرى، بدا لي طولُه السامق،

ولعله يبلغ مئة وثمانين سنتيمتراً أو تسعين، حتى إنه انحنى عند النزول، حتى لا يصيب رأسه، كما تأكد لي نحوه، فلعل وزنه لا يبلغ الستين كيلو، وهو ضامر البطن، في ظهره قليل من الاحدياب، ومن ملامح وجهه قدّرتُ أنه في السبعين، أو فوقها بقليل، لكنه محتفظ بقوته ولياقته البدنية.

لم أنزل بعده مباشرة، كان ورائي سيدة، فسحت لها الطريق لتتزل قبلي مع زوجها، ولدى خروجي من الحافلة وجدتُ الرجل يقف عند الباب ينتظرني، وهو يمسك كتابه بيديه كليهما، ويقول لي بعربية فصيحة وبطلاقة:

- أرجو قبول ضيافتي، تفضّل القهوة أم الشاي؟

قلت له، وأنا أخفي دهشتي:

- ضيافتك من واجبي، أنا.

فرد بصوت هادئ خافت:

- لأ، أنا دعوتك أولاً، وواجبي إكرامك، أنت احترمت

صمتي، ولم تتكلم طوال الساعتين الماضيتين.

قلت له:

- هذا واجبي، وأقبل ضيافتك.

وسألني وهو ينحني قليلاً:

- ماذا تشرب؟

- القهوة من غير سكر، وإذا سمحت، أقترح شربها هنا في حديقة المقصف، لا في الداخل.
- وهذا ما كنت سأقترحه عليك.

ثم أشار إلى منضدة، وقال:

- تفضل، أنا سأحضر القهوة، الخدمة ذاتية هنا في هذا المقصف.

وقعدتُ إلى إحدى المناضد، وإذا بالرجل يرجع يحمل بيده اليمنى صينية فيها فنجان قهوة واحد، ويمسك بالأخرى الكتاب، ويسير بتؤدة وأناقة، كأنه نادل متمرس في المقصف.

نهضت، تناولت الصينية، وأنا أسأله:

- وأنت؟

رد:

- أنا لا أشرب، ولا أتناول أي شيء خارج البيت.

شعرت بحرج شديد، وهممتُ أن أقول له: "وأنا كذلك"، وأنا في الحقيقة لا أشرب أي شيء، ولا أتناول أي طعام إلا من صنع زوجتي في البيت، إلا في حالات استثنائية، ولكن لم أقل له هذا، خشية أن يظن أنني أجامله.

وقعدت قبالتة، أتسم عبق القهوة، وأنظر في الزجاج الأسود القاتم لنظارتة، وأحاول ألا أطيل التحديق فيه، فقد تأكدت لي ملامح القسوة في وجهه، وبادر هو على الفور إلى القول، وقد وضع الكتاب أمامه على المنضدة، وأرخى راحة يده اليسرى فوقه:

– أنا أعيش في دار ريفية قديمة صغيرة في ضواحي حمص، قريبة من أحد البساتين، حفرت فيها بئراً، وعندي جهاز تصفية، أشرب من ماء البئر، وأسقي به الزروع، وعندي مولدة صغيرة خاصة، أستمد منها الكهرباء، وعلى السطح أيضاً صفائح الطاقة الشمسية لتسخين الماء وصفائح لادخار الكهرباء، وفي حديقة الدار أزرع كل أنواع الفواكه والخضر صيفاً وشتاءً، ولا أشتري أي شيء من السوق، وعندي بضعة أشجار مثمرة، كالزيتون والتفاح والبرتقال والليمون والمشمش، وهي تكفيني، وعندي عريشة كرمة تغطي مساحة واسعة من حديقة الدار، وعندي حوض لتربية بعض أنواع السمك، مثل المشط والأسود والجري والبوري، أتغذى عليها، أنا لا أتناول اللحم، عدا السمك، ولا أتناول البيض ولا الحليب، أكتفي بمحصول داري، كما قلت لك: داري صغيرة، فيها ثلاث غرف ومطبخ، غرفة للمكتبة والمطالعة وغرفة

للجلوس وغرفة للنوم، أنا أتولّى كل شيء بنفسى، لا أستعين بخادمة ولا طبّاح، دارى مثل سفينة نوح، لكن أنا فيها وحدى، ليس فيها من الكائنات الحية غير كنارى وحيد فى قفص.

ويصمت، يرقبني، فنجان القهوة أمامى، ما أزال أتسم عبقه، ولم أشرب منه قطرة. ينظر إلي، ويتكلم:

- لم تشرب قهوتك؟

كنت فى الحقيقة مدهوشاً من فصاحته وطلاقته، فهو لا يلكن، ويلفظ الرأء كأنه عربى، لا يلثغ فيها.

أمسك بالفنجان، أرتشف منه رشفة، ثم أقول:

- كنت أستمتع بحديثك، هو أشهى من القهوة، أنت تجيد العربية.

يبتسم، ويعلق:

- أشكرك، يسرنى أكثر عدم ارتشافك القهوة وأنت تستمع إلى حديثى، أنا أقدر صمتك.

يصمت، يبتسم، يتكلم بهدوء:

- أنا عربى بالولادة، أنا مولود فى حلب، سأروي لك فيما بعد بالتفصيل.

وأرفع الفنجان إلى فمى، أرتشف منه، ثم أضعه، وهو يتكلم:

- أنا أمضيت في باريس خمس سنوات، درست فيها الطب ثلاث سنوات، ولم أكمل الدراسة، ثم أمضيت فيها سنتين أستمتع بالمسارح والمتاحف وفن البناء والأماكن السياحية والمعالم الحضارية، ثم سافرت إلى السعودية وعملت فيها خمس عشرة سنة، ثم رجعت إلى أوروبا، عشت خمس سنوات في فايمار مدينة غوته في ألمانيا، وتعرفت على موسيقا بيتهوفن وباخ وموتسار، ثم أمضيت ثلاث سنوات في موسكو، قرأت فيها تولستوي ودستوفسكي وتشيفخوف، وانتقلت بعدها إلى لندن، أمضيت فيها عامين، درست فيهما علم النفس في جامعة لندن، ثم ارتحلت إلى واشنطن، أمضيت فيها سنة واحدة، لم أطق العيش فيها، وقمت بزيارة إلى روما وأثينا، أمضيت في كل واحدة أكثر من سنة، استمتعت فيها بالآثار والمنحوتات الإغريقية والرومانية، وزرت الفاتيكان، ثم زرت نيودلهي، وبكين، ثم أمضيت أكثر من خمس سنوات في التجوال في العالم، قد تسألني: من أين لك المال؟ وكيف كنت تعيش؟.

ويصمت، ثم يضيف:

- قلت لك إنني سافرت بعد فرنسا إلى السعودية، عملت خمس عشرة سنة متواصلة في الترجمة لصالح شركة حكومية فرنسية، من غير إجازة، فاحتسبت لي خدمة

عشرين سنة، كنت فيها المترجم الفوري والوحيد بين ثلاث لغات الفرنسية والإنكليزية والعربية، ادخرت من المال ما جعلني أعيش تلك الحياة الباذخة، وفي كل بلد كنت أعمل أيضاً بالترجمة الفورية بين الإنكليزية والفرنسية والعربية، وأتعلم لغة ذلك البلد، حتى إنني بدأت أجيد الترجمة الفورية في خمس لغات: الروسية والإنكليزية والألمانية والفرنسية والعربية، كنت أترجم في المؤتمرات السياسية والندوات العلمية والاقتصادية، وبالمناسبة أنا أجيد لغة الإسبرانتو، وعضو في المجمع العالمي لهذه اللغة التي نطمح في هذا المجمع إلى أن تسود العالم كله، نسيت أن أذكر لك، أنا غادرت البلد بعد نيلي الشهادة الثانوية، وكان عمري ثمانية عشر عاماً، ولم أعد إليها إلا بعد أن بلغت الستين، أي أنني أمضيت أكثر من أربعين سنة في الغربة، لم أزر فيها الوطن، أنا الولد الوحيد لكل من أبي وأمي، وسأحدثك عنهما، بعد قليل.

وينظر في فتجاني، فأرفعه إلى فمي وأخذ منه رشفة،

فيتابع:

- أنا لم أزر أي بلد من البلاد العربية، وفي السعودية لم أحج، مع أن الشركة الفرنسية نفسها عرضت علي أكثر من مرة أداء فريضة الحج على نفقتها مع تقديم كافة

التسهيلات، باعتباري مسلماً، وقد منحني الحكومة الفرنسية الجنسية الفرنسية، لقاء خدماتي، على كل حال، أنا أؤمن بالله، وقرأت عن الإسلام والمسيحية واليهودية والبوذية، وقرأت التوراة والإنجيل، بل درستهما، وقرأت القرآن، وعندي عدة تسجيلات لكبار القراء، أصغي إلى التلاوة، وأستمع بها، أنا مؤمن كما قلت لك، لكن لا أمارس الطقوس الدينية، أنا أصغي بكل جوانحي إلى موسيقا جار ميشيل جار، أو يان، فأحس أنني حلقت في السماوات، حللت في الكون، أحس أن لي جناحين أطيّر بهما في الفضاء، سأحكي لك، عشت قصة حب رائعة في فايمار، مع فتاة ألمانية تدين بالمسيحية، وتتمسك بالدين، أبت إلا أن يكون بيننا عقد زواج، ثم طلقته، ولي هناك منها ولد، لم أعد أعرف عنه أي شيء، تركته وعمره أقل من سنة، حتى الآن لا أعرف عنه أي شيء، ولا أفكر في السؤال عنه، ما الفائدة من المعرفة؟

مرة أخرى ينظر في الفئجان، فأرفعه إلى فمي، وأحسو منه حسوة، فيتكلم:

- أنا أزود الجيران من حولي بالماء والكهرباء، وأوزع على أولادهم في المناسبات كلها الهدايا، أنا لا أؤمن بما يسمى أسرة، أولاد العالم كلهم أولادي، وأود لو أطمعهم

حبات قلبي، كتبت في وصيتي: داري بعد وفاتي تصبح روضة للأطفال، طبعاً في أثناء تجوالي في العالم أقمّت علاقات كثيرة مع نساء كثيرات، لكن وأنا هنا في الوطن، وأنا في الستين، تعرفت إلى صبية في الثلاثين، أحببتها، وأحبّنتني، عاشت معي ثلاث سنوات، طلبت مني الزواج، فاعتذرت، طلبت مني أن آذن لها بأن تحمل مني، أكدت رغبتها في الإنجاب، فقطعتُ علاقتي بها، وسمحت لها أن تتزوج، وأعطيتها مبلغاً أكبر مما يعطيه الزوج لزوجته إذا طلقها، وهي ما تزال إلى اليوم تزورني مع ولد لها، تقول له: "هذا خالك"، وأنا أعطيه الهدايا، ولا أقيم معها أي علاقة، أنا كنت لا أقيم أي علاقة مع امرأة متزوجة، حتى في كل بلاد العالم التي زرتها وعشت فيها، احتراماً مني للمرأة المتزوجة ولزوجها، تعرفت بعدها على صبية في الثلاثين أيضاً، لم تكن مثل الأولى، استمرت العلاقة معها سنتين، ثم رغبت هي في الزواج، فقدمت لها ما هو أكثر مما يُسمّى المهر، ثم غابت، ولا أعرف عنها حتى الآن أي شيء، ثم بعد سنة أو أكثر، تعرفت إلى صبية ثالثة، كانت في الثلاثين، أيضاً، ومطلقة، وأنا كنت قد بلغت الخامسة والستين، وعاشت معي خمس سنين، قالت: "أن لي أن أتزوج، فإما أن تتزوجني أو تتركني"، قالت: "أريد الولد، أريد أن أصبح أمّاً"، أعطيتها فوق ما أعطيت السابقتين،

أعطيتها أكثر مما يمكن أن ترث البنت من أبيها أو المرأة من زوجها، أنا لا أومن بالميراث، أنا أومن بالهبة والعطاء، بعد سنة زارتني، وقد أنجبت ولداً، عرضت عليّ أن تعيش معي، ومن غير عقد زواج، وتطلق زوجها، قالت: "أريد لولدي أن ينشأ في رعايتك، أريد أن أعيش معك، سأطلق زوجي"، لكنني اعتذرت إليها، آخر امرأة تعرفت عليها قبل سنة، وقد بلغت السبعين، سيدة مطلقة في الخامسة والأربعين، نشأت بيننا صداقة استمرت أقل من سنة، لم أقم معها أي علاقة، عرضت عليّ الزواج، لكنني اعتذرت، وبعدها قطعت علاقتي مع النساء، لأنني تجاوزت السبعين، يكفي أنني عشت عشر سنوات مع ثلاث صبايا كلهن كن في الثلاثين، هي عشر سنوات من أجمل سنوات عمري، إذا كنت قد أمضيت أربعين سنة في رحلات خارجية، فأنا معهن أمضيت عشر سنوات من الرحلة الداخلية، أريد بعد ذلك بصراحة المحافظة على لياقتي، طبعاً أنا الآن كما قلت لك تجاوزت السبعين، ولا أشكو من أي مرض.

ويصمت ثم يضيف:

- أود أن أقول لك، كل الصبايا اللواتي تعرفت إليهنّ جميعاً مثقفات، جامعيات، ومعلمات، أو موظفات، ولسن من طبقة فقيرة، ولم تكن علاقتهن معي عن حاجة أو فقر

أو طمع في مال، لم يكن بحاجة مادية إلي، كنت أعرف كيف أنتقي، ولا أنسى المرأة الرابعة، كنت ألتقيها في المطاعم والمقاصف، أحياناً في مطعم ديك الجن، وأحياناً في مطعم نقابة المهندسين، أو في المطاعم المنتشرة على العاصي، هي بصراحة مهندسة، وعندها سيارة، قلت لك: لم أقم معها أي علاقة، كانت علاقة حب رومنسية، استمرت أقل من سنة، كانت تسعى إلى الزواج، اعذرني أحياناً أكرر الفكرة، أحب أن أتذكر، وأستمع حين أروي لك.

وأنظر في ساعة يدي، فيقول:

- اهناً بقهوتك، ما يزال أمامنا خمس دقائق، سأصمت دقيقتين، أحب الصمت.

يستند بكوعيه على المنضدة، والكتاب بينهما، يشبك أصابع يديه، يضعهما تحت ذقنه، يغمض عينيه، ويغرق في الصمت، يمضي الوقت، أحس كأنه نام. أنفوس في الورق البني القاتم الذي غلف به الكتاب، أحاول أن أستشف من تحت الورق البني العنوان، فلا أفلح، يبدو الكتاب قديماً، لعل عدد ورقه يزيد عن الأربعمئة. يفتح عينيه، يلتقط الكتاب، ينظر في ساعة يده، يتكلم:

- هذا الصمت الذي استغرق دقيقتين تجددت فيه كل خلاياي، واستحوذت في هذا الصمت على طاقة كونية، تعادل أربع سنوات من العمر، هكذا أجدد طاقتي، صدقتي أنا لا أفتعل هذا، ولا أصطنعه، هناك هاتف في داخلي، يتصل بالكون كله، ينبهني، على غير إرادة مني، يقول لي: "عليك شحن طاقتك".

ويصمت، ثم يضيف:

- أمامنا ثلاث دقائق قبل انطلاق الحافلة، سأحدثك عن أمور أقل أهمية، أنا عرفت المذاهب السياسية كلها والأحزاب، كما قلت لك، أنا عشت في موسكو وفي واشنطن، وقرأت التاريخ، ورأيت الشرق والغرب، ملت قليلاً نحو الاشتراكية، ولكن لم أومن بها، رأيت فشلها في التطبيق، أتمنى أن يصل العالم إلى نظرية سياسية جديدة غير كل ما هو موجود من نظريات، ولا بد من أن يصل إلى هذه النظرية التي ستعم العالم، كما أن لغة الإسبرانتو ستعم العالم.

ويصمت، ثم يضيف:

- سأذكر لك موقفاً لا أنساه، رجعت مرة من المدرسة، وأنا في العاشرة من العمر، باب الشقة مغلق، قرعت الجرس، وقرعت، وقرعت، ولا أحد، تخيلت والديّ الاثنين

وقد ماتا في الداخل، تخيلت أنهما خرجا في زيارة وضربتهما سيارة، تخيلت أنهما سافرا ونسياني، وكان المعلم في المدرسة قبل يومين قد حدثنا عن نوح والطوفان، أحسست فوراً أنني مثل نوح، الكون كله غرق، وبقيت أنا وحدي، وحقيقة، كما قلت لك، أحس الآن بداري الصغيرة كأنها سفينة نوح، يبدو لي حلمي قد تحقق.

وننهض، نمضي إلى الحافلة، وقبل أن نصعد، يقف ليقول:

- أنا لا أزور، ولا أزار، ولا أحب التعرف إلى أي إنسان، ولا أسمح لأحد بالتعرف إليّ، أنا لا أتكلم، ولا أسمح لأحد بالعودة إلى جواربي، كل ثلاثة أشهر عندي سفرة، لكن رأيته من نافذة الحافلة، مظهره أنيق، ربطة عنقه منسجمة مع البدلة والقميص، حتى الحذاء جديد ولا مع، والشعر مسرح، رأيت فيك ذاتي، كأنك مرأتي، وأنا الآن أنظر إليك، أرى أنك توءمي، وعندما حدثني عنك الموظف الذي في المكتب، وأشار إليك، وافقت فوراً ومن غير تردد، الشكل عندي هو كل شيء، المظهر يدل على الجوهر، الجوهر وحده لا يكفي، وصمتك هو الذي دفعني إلى الكلام، لم تتطفل، ولم تسألني، ولم تتكلم، أقدر صمتك، فالصمت هو الحياة، صدقتني.

وأدعوه إلى الصعود قبلي، فيصرّ على أن أصعد قبله،
ثم يصر على أن أقعد في مكانه من المقعد إلى جوار
النافذة، ويقعد هو إلى جوارى، وتتطلق الحافلة، وهو ما
يزال يمسك بالكتاب.

ويسيطر الصمت مرة أخرى.

بعد نصف ساعة تدخل الحافلة إلى مدينة حمص، يرحو
السائق من ركاب المدينة أن ينزلوا، كما يرحو من باقي
الركاب ألا ينزل أحد. تمر بضع دقائق ينزل فيها بعض
الركاب. لكن جاري لا ينزل.

بعد دقيقة، يلتفت نحوي ويتكلم هامساً كمن يتابع
حديثاً انقطع:

- نسيت، سأحكى لك، قلت لك: أنا كل ثلاثة أشهر
عندي سفرة، أراجع فيها السفارة الفرنسية، أقبض فيها
راتبي التقاعدي، لأنني كنت في السعودية أعمل في الترجمة
لصالح شركة حكومية فرنسية، أظن أني حدثتك عن
هذا، سامحني، لكن نسيت أن أخبرك، أيضاً، أنا في
الأصل من حلب، لكنني قررت السكن في حمص، لأن
جوها هادئ، ولا أعرف أحداً فيها، ولا أحد يعرفني، مر
أكثر من عشر سنوات وأنا هنا في حمص، لم أتعرف إلى

أحد، ولم أسمح لأحد بالتعرف إليّ، الجيران يعرفون أنني فرنسي، أنا أتكلم الفرنسية، ومعني جنسية فرنسية. ويصمت، يرسل زفرة، كمن يحس بالضيق، ثم يتكلم:

- أنا غادرت حلب وعمري ثماني عشرة سنة، كان أبي قد توفي وأنا في الرابعة عشرة من عمري، أمي كما حكّت هي لي، حملت بعدي مرتين، وأجهضت، ونصح لها الأطباء ألا تحمّل، لذلك أنا الولد الوحيد، سألتها مرة: لماذا أنا وحيد؟، فحكّت لي عن ذلك، والسبب، كما قال لها الأطباء: هو زواجها المبكر، فقد تزوجها أبي، كما قالت لي وهي دون السابعة عشرة، غادرت حلب وهي غير راضية عن سفري، علمت فيما بعد أنها تزوجت بعد سفري بسنة، وكان عمرها فيما أقدر حوالي سبع وثلاثين سنة، وحملت، على الرغم من تحذير الأطباء، وهي في المخاض توفيت، وضعت ولداً، وأنا في فرنسا وعمري في نحو العشرين، وهذا يعني أن لي أخاً، يصغرني على الأقل بعشرين سنة، أي يجب أن يكون الآن قد تجاوز الخمسين، مثلما تجاوزت أنا السبعين، هذا كل ما عرفته عن الولد، أقصد أخي، ولم أعرف عنه بعد ذلك وحتى الآن أي شيء، وبصراحة، لا يهمني أن أعرف، ولا سيما بعد انتقالي إلى حمص، وبالطبع

هو لم يسأل عني، ولا يعرفني، ومرة أخرى، ما فائدة
المعرفة؟

يصمت، يرسل زفرة، ثم يتكلم:

- ولذلك انتقلت إلى حمص، ليس لي أحد في حلب،
أردت أن أحقق وجودي بمعزل عن أي موروث عائلي، أحس
بنفور من كل ما يسمى أقارب، أو أهل، أو أسرة، وهذه
أول مرة أبوح فيها لشخص بهذا.

وينهض فجأة، وبشيء من التوتر، وهو يحتضن
الكتاب إلى صدره، يتجه نحو الباب، يلتفت إليّ، يشير
مودعاً، ويمضي.

يبدأ ركاب جدد بالصعود، ينظر كل منهم في رقم
مقعده في البطاقة التي في يده، ثم يمضي إلى مقعده.

على الأرض أمام باب الحافلة يقف رجل بدين، يرتدي
سترة جلدية سوداء، يحمل بيد كيساً ورقياً مملوءاً، ويبد
الأخرى يضع السيكرة في فمه، وينفث دخانها سريعاً
مرات متتابة، يريد أن يودع التدخين قبل الصعود في
الحافلة.

لم يبق أحد غيره، أمد نظري نحو رصيف الانتظار،
لعلي أرى جاري يقف ليودعني، ولكن لا أرى له أي أثر.

السائق يقترب من باب الحافلة ، يدعو الرجل البدين إلى الصعود ، الرجل البدين يمتص الدخان من سيكارتته بعمق ، ثم ينفثه ، ويرمي بقية السيكارة ، ويصعد في الحافلة ، رأسه مدور ، وجهه ممتلئ ، شارباه كثيفان ، أنفه مفلطح ، شفتاه غليظتان ، في نحو الخمسين من العمر ، هو أقرب إلى القصر ، كأنه كرة كبيرة ، يقترب من مقعدي ، ويتخذ مكانه إلى جوارى ، يلتصق كتفه بكتفي ، يلتفت نحوي ويتكلم بصوت أجش وهو يضحك :

- أنا محظوظ ، أنت نحيل وأنا بدين ، تصوّر لو كان كل واحد منا مثلي أنا ، لا تؤاخذني ، صدقني لن أضايقك .
وتتطلق الحافلة ، يمد يده في الكيس ، يخرج كيس رقائـق بطاطا ، يقدمه لي ، وهو يقول :

- تفضل هذا كيس رقائـق البطاطا ، قرمش حتى تتسلى ، وأنا قادم في الصباح إلى حمص ضجرت مللت ، زهقت روحي ، لم أستطع تحمل ساعتين من القعود بصمت ومن غير سيكارة ومن غير أي شيء أتسلى به ، جاري الذي كان إلى جوارى صامت ، ما نطق بكلمة ، ولم يرد أن أكلمه ، لذلك حسبت حسابي للعودة ، اشترت أكياس المكسرات ورقائـق البطاطا حتى أتسلى بها ، وقلت سأحدث جاري في المقعد ، مهما كلف الأمر ، لا يمكن تحمل

ساعتين من السفر في صمت، المشكلة، لا يسمح لنا بالتدخين في الحافلة أثناء السفر، تفضل.

تغمرنى رائحة التبغ، سترته الجلدية مشبعة برائحة التبغ، يحرك يديه، يصدر احتكاك جلد السترة بعضه ببعض صوت زقزقة مزعجة، ويفتح كيس رقائق البطاطا، فتح الكيس يحدث ضوضاء، وتزداد الضوضاء حين يمد أصابعه الثخينة الممتلئة داخل الكيس ليلتقط رقائق البطاطا، ويأخذ في رمي الرقائق في فمه، وهو يقرمش، وأكاد أسمع صوت القرمشة تحت أسنانه، وهو يلتفت نحوي ويتكلم، يغمرنى بأنفاسه العبقة برائحة التبغ، وهو يقول:

- أنا سأعرفك بنفسى، أنا أبو أحمد، صاحب أكبر مطعم في حلب، رزقني الله بزوجة تساوي عندي كل نساء الأرض جميعاً، هي الزوجة والأم والعشيقة، عوضتني حتى عن أمي، رزقني الله منها تسعة أولاد: خمسة ذكور، وأربع بنات، قلبي طيب، ونيتي صافية، لا أؤذي أحداً، ولا أغش، لكن لا أصلي، أنوي أداء فريضة الحج العام القادم إن شاء الله، وسأصلي بعدها دائماً، أنا تركت المدرسة، وما تابعت دراستي، لكن حرصت على تعليم أولادي، أولادي كلهم مثقفون، الأول مهندس والثاني طبيب والثالث صيدلي والرابع طالب في كلية الحقوق سنة ثالثة، والبنات الثلاث

مدرسات، الأولى مدرسة علوم والثانية مدرسة رياضيات
والثالثة سنة رابعة فى قسم اللغة الإنكليزية، والأخيرة فى
السنة الأولى فى كلية الطب، ولد واحد فقط يعمل معى فى
المطعم، ما أفلح فى الدراسة، وهذه هى رغبته، العمل فى
المطعم، زوجتهم كلهم، زوجتهم على حسابى، صرفت
عليهم، بقيت البنت الأخيرة، طبعاً لن تتزوج حتى تتخرج
طبيبة، الحمد لله، أنا تزوجت باكراً، كان عمري دون
العشرين، لذلك كبر الأولاد معى، وكبرت معهم، كل يوم
جمعة يجتمع الأولاد عندي، لا أتحمل بُعد واحد منهم عنى.

يعود إلى القرمشة، يلتفت ليتكلم:

– لم تسألني عن سبب زيارتي لحمص فى الصباح،
وعودتي منها عصراً، أنا سأخبرك، منذ عشر سنوات
تقريباً، كل أربعة أشهر أو خمسة، أقوم بهذه الزيارة إلى
حمص، أعتبرها نزهة، أتناول الغداء عند صديق لي صاحب
مطعم، مثلي، وأسأل هنا وهناك، ثم أرجع بالخبيبة، ولا
أستفيد شيئاً، أجيء إلى هنا فى الصباح، وأرجع عصراً،
أسأل عن إنسان، ولا أحصل على إجابة مفيدة.

يلقي فى حلقه رقائق البطاطا، يقرمش، ثم يضيف:

- سأحكى لك عن حياتي، قد تستغرب، والدي كان
متزوجاً لكنه لم يرزق بولد، أكثر من عشر سنين، ولم

يرزق بولد، وكان سعيداً في حياته، ولم يكن يفكر في الزواج، وقد بلغ الأربعين، لكن فجأة خطر له أن يتزوج، فتزوج امرأة أرملة، هكذا حكى لي أبي، هذه المرأة حملت بي، لكنها توفيت وهي في الوضع، فربتني زوجته الأولى التي لم يرزق منها بولد، ثم ماتت وأنا في العاشرة، وكانت لي بمنزلة الأم، وحكت لي أن أمي، التي حملت بي وماتت وهي في الوضع، كانت قد أنجبت من زوج سابق ولداً، ثم هاجر وكان عمره حوالي عشرين سنة أو أقل، ثم تزوجت من أبي بعد سفر ابنها بسنة، وحملت بي، وتوفيت وهي تضعني، كما قلت لك، وهذا يعني أن لي أخاً هو الآن أكبر مني بعشرين سنة على الأقل، أنا الآن في الخمسين، يجب أن يكون هو الآن في السبعين، وقد علمت أنه رجع إلى حلب قبل عشر سنوات، قعد فيها أقل من سنة، ثم انتقل إلى حمص، كم أتمنى لو أتعرف عليه، حقاً عندي تسعة أولاد، ولكن أشتي لقاء أخي والتعرف عليه، يسألني أولادي: هل لك أخ؟ أخجل، لا أعرف ماذا أقول لهم، لذلك آتي إلى حمص بين حين وآخر للنزهة وللسؤال عنه، ليس لي عنده أي غرض، لا ميراث، ولا حاجة، ولا أي شيء، لست بحاجة إليه، فقط أريد رؤيته، سأبذل كل جهدي، لا بد أن ألتقي به ذات يوم.

يلتفت إلي، يمد إلي يده بكيس من المكسرات، وهو
يقول:

- فور وصولنا بالسلامة لن أتركك تذهب إلى البيت،
ستذهب معي إلى المطعم، نتعشى ونسهر، ستأكل عندي
أطيب أنواع اللحوم المشوية، وسأزودك بعشاء تحمله معك
للأسرة.

أقول له:

- أنا سأخذ حافلة ثانية إلى الحسكة في أقصى الشمال
الشرقي، أمامي خمس ساعات أخرى من السفر.

الرجل يلتفت إلي، وهو يقول:

- هذا يؤكد ضرورة دعوتي لك، نتناول العشاء،
ونسهر، ثم تنام، وتستريح، لا يمكن مواصلة السفر،
تسافر غداً في الصباح وأنت مرتاح.

أؤكد له اعتذاري، فيلح قائلاً:

- لا تتركني أرجع إلى حلب خائباً، دعني أشعر أنني
فزت بالعثور على أخي، امنحني سعادة العثور عليك، دعني
أعتبرك مثل أخي، لتكن أنت أخي.

يناولني كيساً من المكسرات، وهو يقول:

- تفضل، حتى تتسلى، لكن، أرجوك تكلم، حدثني،
لا أحب الصمت، إذا لم تتكلم، أنا سأظل أتكلم، الموت
عندي أهون من الصمت.

هل أخبره بأن الرجل الذي يبحث عنه كان إلى جوارى
هنا في المقعد نفسه؟ وأنه طوال الساعتين الماضيتين في
الطريق من دمشق إلى حمص قد حكى لي كل شيء عن
حياته، وأنه نزل هنا في حمص قبل بضع دقائق فقط، وأنه
يقعد هنا في المكان نفسه الذي كان يقعد فيه، وأنني
أعرف عنه كل شيء، هل أخبره بهذا كله؟

وإذا أخبرته بكل ما عرفت عنه، هل سيستطيع
الاهتداء إليه؟ أم هل سأكون قد زدت من معاناته؟ وقد لا
يكون هو الرجل المطلوب.

هل ألوذ بالصمت؟

اتركوني، سأعيش كما أريد

تقول له زوجته:

- اتصل بك نجدة مرتين.

يفمغم:

- وماذا يريد؟

- لم يقل.

بعد سنتين يتصل بك أصغر موظف في المديرية، مسؤول الحسابات والجداول، طبعاً لن يتصل بك أحد سواه، هل تتوقع أن يتصل بك المدير ليسأل عنك، أو المدير العام، أو هيام خانم التي كانت تزورك كل يوم لتشرب عندك القهوة، أو زميلتها سنية، وأنت تناول كل واحدة منهما سيكارة من علبتك، لتدخنا في غرفتك، هيام خانم سكرتيرة المدير، وهو لا يسمح لها بالتدخين في مكتبها

المفتوح بابه على مكتبه، وسنية المهندسة لا يمكنها أن تدخن في المقسم، وإلا أفسدت مقاسم الهاتف الحديثة. وماذا يريد منك نجدة بك؟ يا للسخرية، أنت دربتة على أصول المحاسبة، والتدقيق في السجلات والجداول، وبعد إحالتك على التقاعد يحلّ محلّك في العمل، ثم لا يتصل بك، ولا يسأل عنك، حتى السجلات التي بين يديه الآن هي ما تزال سجلاتك، والخط فيها خطك، طلب منك أن تترك له للذكرى قلم الحبر الخاص بك، الذي لم تغيره طوال خمس وثلاثين سنة من عملك في المحاسبة، كنت تتوي ألا تتركه له، كنت تريد الاحتفاظ به للذكرى، ولكنك تركته له عن طيب خاطر، ويمر عامان، ولا يتصل، ولماذا يتصل اليوم؟

ويكرر السؤال لزوجته:

- ماذا قال لك؟

- لم يقل أي شيء، اتصل به أنت، الساعة الآن الثانية

والربع، لم ينصرف.

يأخذ رشفة من فنجان القهوة، يفتح عينيه، يشد

جفنيه، ويعلق:

— إذا كان عنده أي شيء يريد قوله، فسيعاود الاتصال، اتركيني، لا أريد الاتصال بأحد.

حين يبدأ نور الفجر بالتسرب إلى عينيه المتعبتين، ينهض، يغلّق الستائر، يطفئ السيكاارة في صحن امتلاً ببقايا السكائر، يصب آخر ما تبقى في دلة القهوة، يرشقه في حلقه، ويمضي إلى السرير، يلقي جسده المتهاك فيه، ويغرق في النوم، ولا يستيقظ إلا بعد الثانية بعد الظهر، يغط في نوم عميق، إلى جوار التلفاز وهو ييٲ فيلماً قديماً من أفلام أيام زمان، ينام على صوت الفيلم بكل ما فيه من حوار أو أغنيات أو أصوات، لا يوقظه رنين الهاتف، ولا قرع جرس الباب، ولا جر أسطوانة الغاز على الأرض.

زوجته طبعاً تنام في غرفة ثانية مع بناتها الثلاث، وفي غرفة أخرى ينام ابنه صدقي، لم يبق عنده سوى ثلاث بنات، لينا الصغرى، في السنة الأولى في كلية الآداب، قسم اللغة العربية، ويمنى في السنة الرابعة في كلية العلوم، وعلياء المتخرجة في كلية الحقوق، وهي تعمل متدربة عند أحد المحامين، وستمارس المهنة بعد سنتين، صدقي ولده الوحيد يعيد التحضير هذه السنة لامتحان الشهادة الثانوية،

في الفرع الأدبي، لم ينجح في العام الماضي، تمنى لو درس أحد من أولاده الاقتصاد مثله، ليعمل في المحاسبة.

هو وحده المعيل للأسرة، زوجته بهيرة ربة بيت، تقدمت مرتين إلى امتحان الشهادة الثانوية، ولم تنجح، وما من خطيب يتقدم إلى بناته، هن لسن فائقات الجمال، لكنهن على قدر مقبول من الرشاقة والحسن، وما هو بالرجل المشهور في المجتمع، ولكنه نظيف القلب واليد واللسان، لم يسرق قرشاً طوال عمله خمساً وثلاثين سنة في المحاسبة، ما تكلم على أحد بسوء، وطوال حياته لم يعرف امرأة غير زوجته، الموظفات في المؤسسة جميعاً يعرفن استقامته، ولذلك كن يمازحنه وهن آمانات مطمئنات.

ولم يستطع ادخار أي ليرة، وطوال عمره لم يغادر مدينته الصغيرة. أعلنت الوزارة غير مرة عن إقامة دورات محاسبة متطورة في العاصمة، وكان المدير يرشحه لها، ولكن ما من مرة جرى قبوله، دائماً يكون اسمه في قائمة الاحتياط.

ومنذ عامين، منذ إحالته على التقاعد، هذا هو برنامج اليوم، ينام مع خيوط الفجر الأولى، في السادسة صباحاً، ويستيقظ في الثانية أو الثانية والنصف بعد الظهر، ينام في وقت دوامه السابق في المديرية، ويستيقظ

في الثانية، يحار، لا يعرف ماذا يفعل. تعد له زوجته دلة قهوة جديدة، ويفض هو علبة سكاثر جديدة، ويشرع في التدخين. في الرابعة أو في الخامسة، بعد استيقاظه بثلاث ساعات، وبعد تدخين نصف علبة سكاثر، تعدُّ له زوجته طعام الإفطار، إفطاره هو هو، لا يتغير، بيضة مسلوقة، وبضع حبات من الزيتون الأخضر، ونصف رغيف من الخبز، وكأس شاي. ثم يعود إلى القهوة والسيكارة. التلفاز تسلية الوحيدة. لا يتابع سوى قناة الأفلام المصرية القديمة. كل ما عداها عنده تافه، لا أخبار ولا سياسة ولا أغنيات ولا موسيقى ولا أفلام أجنبية. أفلام أيام زمان هي الأفلام الجديرة بالمشاهدة؛ عفوية في التصوير، وارتجال في التمثيل، وأغنيات صادقة، وقصص واقعية، ذات عظة وعبرة، أما ما عدا ذلك فكله سخييف وتافه.

تقول له زوجته:

- والله أنا مللت من الفرجة على هذه الأفلام.

يرد:

- أنا لا أتفرج عليها، أنا أعيش فيها، في داخلها، أعيش البطولة مع فاتن حمامة، مع فريد شوقي، مع عماد حمدي، أيام الشباب كنت أحلم بالسفر إلى مصر، والعمل في التمثيل، الآن أحقق حلمي، لا تحرميني من تحقيق حلمي.

- لكن

- أعرف، هذا جنون، مرض، مراهقة جديدة، وما المانع، العالم كله جنون، هل الفرجة على أفلام الأكشن أفضل؟ أو أفلام الخيال العلمي؟ أو متابعة الأخبار؟ هل أتابع أخبار الحروب وتلوث البيئة وانهيار الاقتصاد وغزو الفضاء وانتشار الإيدز؟ هل أتابع مباراة كأس العالم لتفوز في النهاية البرازيل بكأس العالم وأخسر أنا الشهادة الثانوية؟ مثل ابنك صدقي بك؟ قولي لي ما هو الأفضل؟ أرجوك، اتركيني في حالي.

عند الحادية عشرة ليلاً أو الثانية عشرة، يتناول ما طهته زوجته للأولاد من طعام الغداء، وأياً ما كان الطعام فهو طيب ومقبول، ليس عنده طعام مفضل. وتبدأ السهرة عنده في الثانية عشرة، ويفض علبه سكاثر جديدة.

- اتركوني في حالي، أنا مرتاح، والله، أنا راض ومرتاح.

ما عاد يزور أحداً، لا إخوته ولا أخواته، وليس عنده مقهى ولا صديق. السعال لا يفارقه، وينصح له الأولاد بمراجعة الطبيب والإقلاع عن التدخين، فيرد:

- وأنا نصحت لكم من قبل، ادخلوا إلى الفرع العلمي،
تتخرج الواحدة طبيبة مهندسة صيدلانية تساعد والدها
يأتيها زوج محترم، والآن، لا ينصحنى أحد منكم،
اتركوني، هذه هي حياتي.

حتى راتبه التقاعدي لا يقبضه بنفسه، أجرى وكالة
خاصة لابنه صدقي، وهو يقبض عنه، لا يريد الذهاب إلى
المؤسسة التي كان يعمل فيها لقبض الراتب، ولا يريد رؤية
المؤسسة ولا الموظفين ولا حتى المبنى بعد أن غادره، وكم
آلمه تغيير اسمها بعد تقاعده من مديرية البريد والبرق والهاتف
إلى مؤسسة الاتصالات السلوكية واللاسلكية، أي اتصالات
هذه وأي مؤسسة؟ وما الفرق؟ إن هي إلا أسماء سميتوها،
لم يتغير شيء، وكيف سيمد يده إلى المحاسب نجدة بك
ليقبض منه راتبه التقاعدي وهو الذي كان يقبضه راتبه،
وهو الذي علمه أصول المحاسبة والتدقيق وضبط السجلات؟

وتدخل عليه ذات يوم زوجته لتقول له بهدوء، وهي تقدم
له دلة القهوة:

- مرات كثيرة قلت لك، يا أبو صدقي، اذهب إلى
الجامع، هو لصق بيتنا، واللّه كنت وجدت الراحة
والطمأنينة، وأنت ما سمعت كلامي.

يقاطعها:

- أنتِ صلي، واتركيني، ولا تقولي لي مرة ثانية اذهب إلى الجامع، أنا أعرف ربي، والعلاقة بين العبد وربّه أمر خاص، لا يحق لأحد التدخل فيه.

- والآن أقول لك، ابحث عن مقهى تقعد فيه، أو حديقة، ترى الناس وتتسلى معهم وتسمع قصصهم.

ويرد عليها:

- يا بهيرة، الله يرضى عليك اسمعي، يا زوجتي، يا أم صديقي، أنا أمضيت كل عمري، أكثر من خمس وثلاثين سنة في غرفة أصغر من غرفتي هذه، وأنا محبوس بين الدفاتر والسجلات والأرقام، وكل يوم أرى الناس وأعطيهم رواتبهم واستحقاقاتهم، وبعد هذا في النهاية لما تقاعدت ما سأل عني أحد ولو بالهاتف، ما فائدة المقهى والحديقة، المقهى للعجائز والقعدة، والحديقة للشباب المائعين، أنا هنا عالمي، هذه حياتي، أنا كنت أنتظر إحالتي على التقاعد، حتى أعيش هذه الحياة، أرجوك، لا تلحي علي، أنا إذا خرجت من حياتي هذه فسوف أموت مثل السمك إذا خرج من الماء، اتركيني، أنا مستريح، أنا بألف خير، اتركيني لأمضي ما تبقى لي من عمر، هنا في مملكتي.

تصمت، تقول له:

- ما دامت هذه حياتك وأنت مرتاح، وعد مني، ما عدت
أكلمك في الموضوع.

وتتركه وتخرج.

ولكن في يوم آخر تضيق بها الأحوال، فتدخل عليه
لتفجأه بقولها:

- أنت دفنت نفسك على الحياة.

ينفث دخان سيكارتته، ويعلق:

- والله لا أحد منكم يعرف ما أنا فيه، أنا أعيش
الحياة، ما أعيش فيه هو الحياة الحق، ولكن لا أريد أن
تجربوه، عيشوا أنتم حياتكم.

ويصمت، ثم يضيف:

- بهيرة، أقول لك، اتركيني، عيشي حياتك، زوري
كل يوم أمك وأخواتك والجيران، عيشي مع ابنك وبناتك،
اذهبي إلى سجادتك وصلي، وإلى مصحفك واقرئي، هل
تدخلت أنا في يوم من الأيام في حياتك؟ هل قلت لك لا تصلي
أو لا تقرئي في القرآن؟ أنا هذه حياتي، أرجوك، اتركيني
لأعيش كما أريد.

وتعلق:

- أي حياة يا أبو صدقي، راتبك التقاعدي لا يكفيننا
عشرة أيام.

يغلق عينيه، ويتكلم:

- يا أم صدقي، يا بهيرة، واللّٰه لو أستطيع عمل أي شي
لما قصرت، ما عندي رأسمال لأشتغل بالتجارة، ولا عندي
دكان، ولا عندي خبرة بأي مهنة، هل أقعد عند الحلاق
وأنا في هذا العمر لأتعلّم منه الحلاقة؟ ولا عندي شهادة قيادة
سيارة، لو عندي كنت عملت سائق سيارة أجرة، والذي ما
ترك لي قطعة أرض ولا عمارة، هذه الشقة اشتريتها
بالتقسيط من البنك، وقبل خمس سنين انتهينا من الأقساط
والفوائد، وأنا الآن عمري فوق الستين، صار اثنتين وستين،
ماذا أعمل؟

تربت على كتفه، تخرج، والدموع تملأ عينيه.

ويرن جرس الهاتف.

وتدخل عليه زوجته تقول له:

- زميلك نجدة على الخط.

يرد:

- قولي له: ماذا يريد؟

وتعلق:

- الرجل يريد الكلام معك.

وينهض، يمضي إلى غرفة الجلوس حيث الهاتف، يلقي
بجسده في مقعد عريض، ينفث دخان السيكارا، ويسعل،
يرحب بالرجل، ثم يصغي إلى حديثه.
ويضع السماعة، ويظل في مقعده، كأنه لا يريد
النهوض والعودة إلى حجرته.

تسأله زوجته:

- ماذا قال لك نجدة؟

يضحك بهدوء، يقول لها:

- قومي هاتي علبة السكائر والقداحة، حتى أحكي

لك.

وترجع، تناوله علبة السكائر، يشعل سيكارته، يفتح
عينيه، يحدق فيها، ويضحك ساخراً، وهو يقلب كفيه، ثم
يسألها:

- بهيرة، هل أنا في هذه السن مناسب للعمل؟ وهل هيئتي
مناسبة؟ شعر أبيض، وجلد متغضن، وأجفان متورمة، واللّه
الشیطان يهرب من هيئتي.

زوجته تعلق:

- واللّه يا رجل، أنت ظلمت نفسك، أنت تبالغ، مثلك

رجال فوق الستين تزوجوا وأنجبوا.

يضحك، يضحك هذه المرة أكثر، ثم يعلق:

- وأنا سأنجب حتى ولو لم أتزوج.

تنظر إليه مدهوشة:

- كيف؟ ماذا قال لك زميلك نجدة؟

- اسمعي: عرض علي العمل في المحاسبة في مستشفى

للتوليد، كل يوم أرزق بعشرة أطفال أو عشرين، ومع كل

طفل تأتي الهدايا والأطعمة والحلويات من كل صنف ولون.

الزوجة تكاد تزغرد وتقول:

- الحمد لله، والراتب...

يقاطعها:

- أنت كل همك الراتب، ما سألت عن الدوام وطبيعة

العمل؟

- دوام طبيعي، اعتبر نفسك عدت إلى الوظيفة ولم

تتقاعد، لكن قل لي: كم الراتب؟

- الراتب ضعف راتبي التقاعدي.

- هذه المرة لا بد من الزغردة.

وتطلق زغردة طويلة، يقاطعها، فيقول:

- لكن اسمعي، الدوام من الساعة 7 صباحاً حتى

الساعة 4 مساءً.

تصمت، تضيف:

- يا ليت الدوام في الليل، أنت تحب السهر.
- غير ممكن، زميلي نجدة هو الذي يعمل في الليل، من الرابعة حتى الثانية بعد منتصف الليل.
- ليته يتبادل معك في الدوام.
- لا يمكن، نجدة يداوم في المؤسسة في النهار، ويعمل في المستشفى في الليل، في الرابعة يأتي، فأسلمه الصندوق، ويقعد في محلي.
- هذا أفضل من الجلوس في البيت أمام أفلام أيام زمان.
- لكن لا عطلة، لا الجمعة ولا السبت ولا الأحد ولا في الأعياد، حالات الولادة لا تعرف العطل.
- يصمت، ينفث الدخان، تسأله وهي مرتاحة إلى الجلوس معه:
- والمستشفى؟ بعيد ... قريب؟
- سيارة تأخذني، وسيارة تعيدني إلى البيت، ووجبة إفطار وغداء مثل ما يقدم من وجبات لنزيلات المستشفى.
- والله هذه الوظيفة أحسن من وظيفة مدير مؤسسة البريد التي كنت تعمل فيها.
- لكن هناك شرط.

- ما هو؟

- ممنوع التدخين.

تصيح:

- أوه، الحمد لله، والقهوة؟

- لا مشكلة مع القهوة.

وتعلق:

- صديقك نجدة هذا يفتدى بالروح، بارك الله فيه،

وكيف دبر لك هذا العمل؟

- كان عندهم محاسب في النهار، لكن تبته المدير إلى

سرقاته، فصرفه، وطلب من نجدة ترشيح موظف بديل،

فاختارني لهذا العمل.

زوجته تعلق:

- الحمد لله، جاء الفرج.

يشعل سيكارتته، يتكلم:

- لكن، نسيت، عندي شرط.

تسأله:

- وما هو؟

- لا بد من تلفزيون صغير في غرفتي بالمستشفى.

- اطمئن، أنا أعرف، كل غرف المستشفيات فيها تلفزيون.

- وحتى في غرفة المحاسب؟

- وحتى في غرفة المحاسب والمرضات والأطباء.

وتضحك، وهي تضيف:

- وحتى في غرفة العمليات.

وبعد تردد وحيرة وقلق وتشاور يومين، يجد الرجل نفسه مضطراً إلى قبول العمل محاسباً في مستشفى التوليد.

وتتغير حياة الرجل.

يخلق ذقنه كل يوم، يستيقظ في السادسة، في السادسة والنصف تمر به السيارة، في السابعة يكون على رأس عمله، وفي الرابعة والنصف يكون في بيته، توصله سيارة المستشفى إلى أمام باب العمارة.

ينام في العاشرة تماماً، قد يرى فيلماً أو فيلمين، لكن لا بد من أن ينام في العاشرة، حتى يستيقظ في السادسة. طبعاً لا بد من السيكرة، فور عودته إلى البيت لا بد من دلة القهوة والسيكرة، ولكنه لا يكاد يستهلك غير علبة سكاثر واحدة، وأحياناً أقل من علبة.

وامتألت الثلاجة بالفاكهة، عدا اللحوم وأصناف
الطعام، وأغدق على بناته وعلى ابنه الهدايا، فمع كل مولود لا
بد من هدية مادية تقدم له، وهو المحاسب وأمين الصندوق.
في البداية أحس بالضيق والاكتئاب، وكان يظن أنه
سيشتم روائح الأدوية والمطهرات، وسيرى جثث الموتى،
ولكن سرعان ما وجد نفسه في غرفة واسعة، وفيها تلفاز،
وكل يوم يرى الورود والزهور والهدايا وأصناف الطعام
والمآدب التي تقام للأمهات الوالدات في المستشفى، ولا سيما
تلك الوالدة التي تضع مولوداً ذكراً أو تضع مولودها الأول،
وأحس أنه مع الولادة والحياة والتجدد، فكل يوم وجه
جديد، بل وجوه جديدة تأتي إلى العالم، وكل يوم بسمات
وزغاريد وأفراح تقام حتى في غرف المستشفى وفي بهوه. وفي
كثير من الحالات يخصص بعلمة من الطعام أو الحلويات،
فتنعم بها زوجته وأولاده. ولحسن حظه، طوال سنتين من
العمل في المستشفى لم تحصل حالة وفاة لا عند الوالدات ولا
في المواليد. لا يعرف كيف واتاه الحظ فجأة. وعادت إليه
صحته، وتورّد وجهه، وزاد وزنه، وبدأ شيئاً فشيئاً يقلل من
تدخين السكائر، وإن كان لم يقلع عن التدخين، ولم
ينقطع عن مشاهدة أفلام أيام زمان في غرفة المحاسبة في
المستشفى وفي غرفته الخاصة بالمنزل.

ومرت سنة أو بعض السنة ، وهو يزداد سروراً بالعمل ،
وزاد من سروره اللقاء كل يوم مع صديقه نجدة ، وبدأ
الجيران والأقارب والأهل والأصدقاء يتوددون إليه ، يرجونه
أن يتوسط لهم لدى مدير المستشفى كي يمنحهم لأجله
حسماً خاصاً ، وكان لا يتردد في مساعدتهم ، بل يجد
السرور في قدرته على تقديم العون لهم ، وكان مدير
المستشفى يثق به ، كما زاد من سروره نجاح ولده في امتحان
الشهادة الثانوية ، الفرع الأدبي ، وقد انتسب إلى قسم اللغة
الإنكليزية ، لكنه أحس بحسرة في نفسه ، تمنى لو يرى
ابنه طبيباً في المستشفى مثل باقي الأطباء الشباب الذين
يتنقلون بين الممرضات الصبايا ، وحز في نفسه أكثر لو أن
هذا العمل أتيح له قبل عشر سنين لا الآن وقد تجاوز الستين .

ولكن ، ذات يوم ، رجع إلى البيت ، دخل إلى غرفته ،
وأخذ يدخن ، أحضرت له زوجته دلة القهوة ، وظل يدخن
ويشرب ويشاهد أفلام أيام زمان . شكَّت زوجته في الأمر ،
ولكنها صمتت . بلغت الساعة العاشرة ، الحادية عشرة ،
الثانية عشرة ، وهو ما يزال في غرفته ، يدخن ويتفرج على
التلفاز ويشرب القهوة . دخلت عليه زوجته ، وقفت أمامه
صامتة ، قال لها :

- نامي، لا تقلقي.
- وأنت؟
- لن أنام.
- وعملك؟
- لن أذهب.
- أنهى المدير عملك؟
- لأ، أنا أنهيت عقدي.
- عثرت على عمل جديد؟
- لأ... أرجوك، نامي ولا تسألني.
تربت على كتفه، توليه ظهرها وتهتم بالخروج،
ولكنها ترجع لتقول له:
- أرجوك، أطفئ السيكاارة قبل النوم، أخشى سقوطها
من يدك وأنت بين الصحو والنوم، سمعت عن رجل سقطت
بقية السيكاارة في فراشه، وهو نائم، فاحترق الفراش
واحترق الرجل.
يعلق:
- لا تخافي، أنا لا أبقي من السيكاارة أي شيء، أنا
أحرقها كلها، حتى العقب، لذلك لا تخافي، لن تحرقني.

في ذلك اليوم تقدم منه رجل عجوز، دفع المبلغ المطلوب،
ثم قدم له علبة حلوى، وورقتين نقديتين، وقال له:

- هذه هدية لك، أرجو قبولها.

وابتسم، وقال له:

- مبارك، هذا حفيدك الأول؟

رد العجوز:

- لأ، هو ولدي العاشر.

مد رأسه نحوه، وسأله:

- كم عمرك؟

- حوالي السبعين.

- من زوجة جديدة؟

- نعم، توفيت زوجتي، أم أولادي، وبقيت خمس سنين

من غير زوجة، ثم هداني الله إلى أرملة في الأربعين، توفيت
زوجها، وتزوجتها.

- وعندها أولاد من قبل؟

- لأ، لم ترزق بولد، تزوجتها على هذا الأساس، لكن

كان زوجها هو المسؤول عن عدم الإنجاب.

- وأنت ما شاء الله

يضحك، يعلق:

- الحمد لله، هذه نعمة من الله، وصدقني كنت أتمنى
أنشى، لكن الله رزقني بذكر، عندي تسعة ذكور،
وصاروا عشرة، أشتهي البنت، البنت حنونة، ووجودها في
البيت بركة.

- وعملك؟

- حارس في معمل.

- وفي هذه السن؟

- نعم، في هذه السن، المعمل خاص، صاحبه أكرمني،
ثلاثة من أولادي معي في المعمل، لا يتركني، ولو صار
عمري مئة، بنى لي ثلاث غرف فوق سطح المعمل، أعيش
فيه أنا والأولاد.

- وكيف ستعيل عشرة أولاد، وزوجة جديدة ومولودها

الجديد؟

- المعيل هو الله.

- لا إله إلا الله، يكفيك راتبك؟

- قلت لك، ثلاثة من أولادي لهم عمل في المعمل، لكن
والله لا آخذ منهم أي شيء، ممكن العيش بمئة وممكن
العيش بمليون، المهم الصحة والعافية والقناعة، وفي النهاية،

القبر واحد ، قبر صاحب المليارات مثل قبر من لا يملك أي شيء ، هي مجرد حفرة ، المهم حياتك ، اعرف كيف تعيشها .

ويصمت ، ثم يسأله :

- كثير عشرة ، والله يا أخي ، لماذا عشرة؟

العجوز يضحك ، يعلق :

- حتى يشتغل المستشفى ، وحتى تعمل أنت ، ويعمل

الأطباء ، وتعمل الممرضات ، هل تعرف بغل الطاحون؟ لا بد له من الدوران ، حتى يدور الطاحون .

ثم ودعه وانصرف .

حقيقة لماذا عشرة أولاد؟ ولماذا يولد كل يوم أكثر من عشرة ، وأحياناً أكثر من عشرين؟ ولماذا لا بد من دوران الطاحون؟ لماذا لا يتوقف هذا الطاحون؟

حقيقة أنا بغل الطاحون . الآن عرفت . أكثر من ثلاثين سنة وأنا في خدمتهم ، كنت أظنهم زملاء أصدقاء ، كنت أظن نفسي صاحبهم وصديقهم ، ما طلب أحدهم سلفة إلا أعطيته ، وكثيراً ما كنت أقبض أحدهم راتبه قبل نهاية الشهر بخمسة أيام أو حتى سبعة ، يأتيني يشكو ، فأعطيه ، ويمرض أحدهم فيرسل ابنه ، فأعطيه راتب والده ، على

الثقة، ثم تقاعدت، ما سأل عني أحد، عرفت الحقيقة، كنت مجرد أمين صندوق، مجرد محاسب، مجرد معتمد، أنا بالنسبة إليهم مجرد كيس مال يتحرك، أو كما كان يقال: "كيس خرجية"، وأولادي ليسوا بأفضل منهم، حتى أولادي، أنا بالنسبة إليهم مصدر تمويل، أنا مصرف، أنا بنك، دائم السيولة، حتى بعض المصارف تفلس، وأنا يجب ألا أفلس، يجب تلبية طلباتهم، إلا أنت يا بهيرة، الحقيقة ما طلبت مني أي شيء، أنت غير كل نساء الأرض، أنت عزائي الوحيد، لكن أنا أعرف طلباتك، وألبها، قبل تصريحك عنها، قبل طلبها، بل قبل التلميح إليها، وتقاعدت واسترحت من الدوران، والطاحون يدور على الراتب التقاعدي، والأمور ماشية.

وجاء نجدة ورشحتني للعمل في المستشفى، أنا أعرف، لا عن حب لي، لكن لأجل مصلحته هو، يخاف من تعاقد مدير المستشفى مع محاسب يعمل في الليل والنهار، فيستغني عن خدماته، لذلك رشحتني، من أجل استمرار عمله في المستشفى، لا عن حب لي.

وعدت مرة ثانية إلى الدوران، مر حوالي سنتين وأنا مرة ثانية بغل الطاحون، وفي هاتين السنتين لبيت كل طلباتهم، بل حققت لهم أكثر مما يطمنون أو يتوقعون، ثم ماذا بعد؟

وإلى متى؟ وهل لهذا من نهاية أو حد؟ ولماذا؟ الآن عرفت، أنا مجرد بغل الطاحون، عليّ الدوران والدوران والدوران. اليوم سيتوقف بغل الطاحون عن الدوران، سيرفع الكمامة عن عينيه وسيتوقف عن الدوران.

فور انصراف الرجل العجوز، صعد إلى المدير، قدم استقالته، وانتظر إلى الرابعة، حتى جاء زميله، سلمه الصندوق، وعندما جاءت السيارة لتوصله إلى البيت، اعتذر، وصمم على العودة إلى البيت ماشياً، وقد قرّر ألا يخرج من غرفته، ليعيش حياته.

وقبل أن تخرج زوجته من الحجرة تسأله:

- وهل ستسهر إلى الصباح.

- سأسهر إلى ماشاء الله.

- أنا أشفق عليك.

- أرجوك، لا تشفقي علي، أنتم عشتم حياتكم سنتين مرفهين منعمين، أنا وفرت لكم كل شيء، بصراحة، يا بهيرة، تعبت، وهذه ابنتك أصبحت محامية تمارس المهنة، ولينا الصغرى تزوجت، لم يبق عندك غير صدقي ويمنى،

وعندكم ما يكفيكم سنتين آخرين، عدا راتبي
التقاعدي، الشغل لا نهاية له، اتركيني لأعيش أنا حياتي
مثلما أريد ولو يومين.
تتركه وتخرج.

في الفجر تنهض، تصلي، تقعد على سجاداتها تتلو في
القرآن، تظل في موضعها حتى تشرق الشمس، ويحل
الصباح.

تعد الفطور لأولادها، كعادتها.

تقترب من باب الحجرة، تسمع صوت التلفاز، تدخل
بهدهوء، تلقي نظرة، وإذا هو في السرير مغطى باللحاف،
تقترب من التلفاز، لتغلقه، فيأتيها صوته:

- اتركه، أنام على صوته، هو لا يزعجني، ولا تدخلني
علي مرة ثانية.

تدنو من منفضة السكائر، تمد إليها يدها، لتحملها،
يأتيها صوته:

- أرجوك، لا تحملي المنفضة، اتركها، دعيني
أستمتع برؤية أعقاب السكائر التي دخنتها، أحس بها، هي
عمري، ولا ترمي الرماد، هو حقيقة وجودي، ولا ترمي علب

السكائر الفارغة، كلما كانت البقايا أكثر أحسست
بالعيش أكثر.

وتعلق:

- لكن رائحتها؟

- لا تحرميني منها، هي رائحة حياتي أنا، هي رائحة
الحياة.

تقف صامته، يضيف:

- أرجوك، اتركيني وحدي، كي أعيش.

تتركه، تخرج، وهي تمسح دموعين من عينيها.

تمضي إلى مصحفها تقرأ فيه، وتبتهل إلى الله.

وأنا صغير كنت أرسم واحة باللون الأزرق، وسط
محيط من الرمال باللون الأصفر، ثم أرسم شجرتي نخيل
خضراء، وجملين أو ثلاثة، قافلة جمال، منفضة السكائر
هي واحتي الآن، وعلب السكائر الفارغة هي قافلتني، ليتني
ما رميت علب السكائر الفارغة منذ ولدت.

عند الثانية بعد الظهر تقترب من باب الحجره، يتناهى
إلى سمعها من التلفار صوت فاتن حمامة المتميز، ترجع.
بعد ربع ساعة تعود مرة ثانية، ينتابها قلق، تفتح الباب
وتدخل، علبة السكائر فارغة، دلة القهوة فارغة، وهو ما
يزال يغط في النوم، تقترب منه، تجد خيطاً من الزبد
الأبيض متجمداً عند زاوية فمه، عيناه مفتوحتان على
الآخر، تهزه، تناديه، وما من جواب.

نظرات متبادلة

منذ سنتين أو أكثر، وهي تعمل في هذا القسم، لا يهتم بها، ولا يبالي، يعتبر وجودها أمراً عادياً، هي عاملة خدمة وتنظيف في المستشفى مثل كثير من العاملات.

تمسح أرض الممر، تمسح البهو، طبعاً تمسح أولاً غرفته، وطاولته، والنوافذ، ثم تمسح غرف باقي الأطباء، ولكنها تعتني به أكثر، فهو رئيس قسم الجراحة العينية، ويدخل ويخرج، لا يبالي بها، وكثيراً ما دخل وهي تمسح زجاج طاولته، ولا يهتم.

ولكن بدأ في اليومين الأخيرين ينظر إليها، يتفحص ملامحها، يبحث عن تعبير ما في عينيها، أو حركتها، أو في التفاتتها، يريد أن يصل إلى شيء.

وانتهت إليه، أحست هي أيضاً بنظراته.

بدأت تعنى بنظافة غرفته أكثر، تمسح زجاج النوافذ، تمسح زجاج طاولته مرات ومرات، بدأ الزجاج أكثر لمعاناً،

أخذت تتعمد الحضور إلى غرفته مع وصوله، ليراها وهي
تمسح زجاج الطاولة.

لم يكلمها في شيء، وهي لم تكلمه، ترميه بنظرة،
وتبتسم.

وتظل نظرتة حادة ثابتة، يريد أن يفهم شيئاً، يريد أن
يصل إلى قرار، كأنه محقق، لا طبيب عيون، كأنه قاضٍ
يريد أن يتخذ حكماً، لا دليل لديه، لكن يريد أن يعرف
الحقيقة من ملامح الوجه ومن نظرات العينين، تمنى لو أن
جهاز فحص العين يكشف عن الحقيقة.

وجه أبيض منور مشرق بريء، لا يمكن اتهامه بشيء،
غمأرتان في الخدين، يظهر بهما الوجه مبتسماً دائماً، وإن
لم تبتسم، عينان سوداوان، مكحولتان، من غير كحل،
شعر أسود طويل مرسل على الظهر، ثياب محتشمة، لا تدل
على فقر، بل تدل على ذوق، العمل ليس عيباً أياً كان،
ربما كانت ظروفها لم تساعدها على متابعة الدراسة، لا
يعرف عنها شيئاً، هي من غير شك متزوجة، جسمها
ممتلئ، في نحو الخامسة والثلاثين، ربما توفي زوجها وترك
لها أولاداً، أو لعله عاجز عن العمل، أو لعله عامل مثلها.

وهي شريفة، نزيهة، لم يتكلم عليها أحد بسوء،
يعرف هو ذلك جيداً، ويعرف أيضاً أنها لا تقبل عطاءً لا من
طبيب ولا من مريض ولا من زائر.

مهما يكن وضعها، هو طبيب في عمله، وهي عاملة
تنظيفات، لا يهमे من أمرها شيء، وما كان ليفكر فيها،
من قبل، هو لا يزدريها، بل يقدر عملها، ويُشفق عليها،
لكن فقط يريد أن يعرف الحقيقة، يريد أن يصل إلى قرار
بشأنها.

هل يكلم المدير؟

اهتمامها به زاد، لكن في خجل، تستقبل نظرتيه
القاسية المتفحصة بابتسامة خفيفة.

هل تريد خداعي، وأنا في الخمسين من العمر، وأنا
طبيب العيون، كل يوم أفحص عشرات العيون، أنظر في
أعماقها، هل تحاول الظهور بمظهر البريء، وجوه كثيرة
بريئة، لكنها تخفي وراءها ما تخفي.

للأسف درست تشريح العين، ولكن لم أدرس النظرة.
مرّ نحو الشهرين وهو بين شك ويقين، لم يستطع
الوصول إلى قرار، يريد أن يحسم الأمر.

مرة واحدة فقط تجرأت وسألته:

- دكتور، أعجبك المكتب، تريد أي خدمة أخرى؟

نطق بسرعة وهو متجهّم:

- لا، شكراً.

وأولها ظهره ثم خرج.

توجه إلى غرفة المدير، يريد أن يحدثه عنها، وجد مدير
المشفى وهو يخرج من غرفته، رحب به، وقال له:
- تفضل، هل أرجع.

ورد عليه:

- لا شكرا، كنت فقط أريد السلام عليك.

بعد نحو شهرين يدخل المشفى راجعاً من محاضراته في
الجامعة حاملاً حقيبتة البنية، في الممر يجد عاملة متقدمة
في العمر، تمسح الممر، يشعر بالراحة، لا شك أن تلك
العاملة قد نقلت، يبادر إلى سؤال العاملة العجوز:

- أنت هنا جديدة في العمل؟

ترد:

- نعم، أنا انتقلت إلى محل ابنتي، راضية، الله يرضى
عليها، أنا أم راضية، وهي انتقلت إلى محلي في المشفى
الوطني، هناك حارس في المشفى، توفيت زوجته، وعنده
ثلاثة أولاد، وبنتي، المستورة، الله يرضى عليها، تزوجت من
خمس سنين وما أنجبت، زوجها طلقها، وهذا الحارس يريد
زوجة ترعاه وترعى أولاده، يريد امرأة لا تنجب، حدثته أنا

عنها، هي نصيبه، الحمد لله، لا نعرف، وقد ترزق منه بولد، وبيته قريب من المشفى الوطني، ومدير الصحة وافق على الانتقال مباشرة، هذا توفيق من الله.

وترسل زفرة، ثم تضيف، وتبتسم مثل ابنتها:

- وهي حككت لي عنك، أنت الدكتور سامي.

رد بامتعاض:

- نعم، أنا هو.

وتعلق والسرور يعلو وجهها:

- نعم، عرفتك من وصفها لك، وحديثها عنك، هي تحترمك كثيراً، وأوصتني بالعناية بغرفتك، حضرتك رئيس قسم الجراحة العينية، والله مسحت غرفتك واعتيت بها أكثر من كل الغرف.

أولاها ظهره ومضى إلى غرفته، لم ينطق بكلمة، بل استاء لأنه بادر العجوز بالكلام.

انتقلت البنت، وجاءت الأم، لا شك في أنها أكثر وقاحة من ابنتها، تتظاهر بالطيب والبراءة، وتبتسم مثل ابنتها، وتقول: "ابنتي حدثتني عنك، وأوصتني بك"، شكرا لهذه التوصية.

دخل مكتبه، وضع حقيبته الجلدية البنية على المنضدة، وجد على المنضدة بطاقة دعوة لحضور محاضرة في

مديرية الثقافة، نادراً ما تأتيه دعوات من مديرية الثقافة،
قرأ العنوان: "نظرات العيون في الشعر العربي"، سخر من
العنوان، ومن اسم المحاضر، وهو الذي لا يهتم بالشعر،
تذكر عاملة التنظيفات، التي لم يدرك حتى الآن سر
نظرتها، أعاد قراءة العنوان.

قد نحضر المحاضرة، لعلنا نتعلم بعد هذا العمر سر
نظرات العيون؟ ولكن ماذا سيقول المحاضر؟

كلام الشعراء لا أفتتح به، إن هو إلا أوهام، لاحب ولا
عيون، ولا نظرة أولى ولا نظرة أخيرة، هي مجرد مصلحة
مشتركة يسعى طرفان إلى تحقيقها، ويسوِّغان هذا السعي
بالحب، هذا إذا لم نقل هي غريزة تنضح، تتحرك، تتفجر،
مثل البركان، والعيون هي فوهة البركان.

ثم يخمد البركان، وتتحول الفوهة إلى بركة ماء آسن.
لا أظن أني سأحضر.

همَّ بوضع بطاقة الدعوة في الجيب الداخلي من
الحقيبة، حيث يضع عادة الأوراق التي يريد أن يتذكرها
ولا ينساها، وهو يضع البطاقة في الجيب، وجد ظرفاً
أبيض، مكتوباً عليه: "أبو أحمد"، هو الظرف نفسه،
فتحه، فيه خمسة آلاف ليرة، إحدى الوريقات من فئة

الألف، جانبها ممزق، وعليه شريط لاصق شفاف، هي
الآلاف الخمسة نفسها، وهو الظرف نفسه.

يا إلهي.

قبل شهرين كان قد رجع من الجامعة إلى المشفى،
دخل غرفته، ارتدى الصدرية البيضاء، وهو في عجلة من
أمره، ثم غادر المكتب، قاصداً إلى غرفة العمليات ليجري
عملية زرع قرنية، لكنه انتبه إلى الحقيبة الجلدية البنية،
يحملها بيده، وهو ذاهب إلى غرفة العمليات، سخر من
نفسه، ضحك، لا حاجة له بتلك الحقيبة التي لا يحملها إلا
في الشهر مرة، عندما يذهب إلى الجامعة ليلقي فيها
محاضراته الشهرية، رجع إلى المكتب، استل من الحقيبة
ظرفاً أبيض، فتح الدرج، رن جرس الهاتف، أعاد الظرف
إلى الحقيبة، رد على الهاتف ثم أسرع إلى غرفة العمليات.

بعد نحو الساعة، خرج من غرفة العمليات مرهقاً.

أسرعت إليه العاملة راضية بفنجان قهوة، شربه، فتح
الدرج، لم يجد الظرف.

ثار غضبه، هم بمناداتها، ولكنه تردّد.

فتح الأدراج كلها، أفرغ محتوياتها، أعاد ترتيبها، مزق كثيرا من الأوراق التي ليس بحاجة إليها، نظرت تحت الطاولة، أسفل جهاز الهاتف، في جيوب معطفه. هو مبلغ بسيط جداً، هو المبلغ الذي يعطيه كل شهر للبواب الذي يركن سيارته في المرآب، ويمسحها، وأحيانا يأخذها ويملاً خزائنها بالبنزين، وقد وضعه في الظرف كي يعطيه إياه، كعادته كل شهر، وكتب عليه: "أبو أحمد"، ولا يمكن أن يختلط بظرف آخر، أو يضيع.

وهو يغادر المشفى، رأى أم راضية في البهو، فتح الظرف، ناولها المبلغ، وقال لها:
- هذا هدية لبنتك راضية، وسلمي لي عليها.
ثم همس في سره:
- وقولي لها الدكتور سامي يطلب منك السماح.
وهبط على درج المشفى، وقد قرر حضور المحاضرة.

حتى في باريس

دفع الباب الزجاجي بهدوء ولطف، وخطا داخل الفندق بخطوات محسوبة، على اليمين للخروج، وعلى الشمال للدخول، عبّر قوس إلكتروني، وعامل الفندق بزيه الرسمي يقف إلى جوار القوس.

لم يقل لي أحد ادخل من هنا، أو ادخل من هناك، أنا سأختار بملء حريتي، الخطوة الأولى التي أخطوها داخل القوس، هي اختياري الحر، كلمة دخول المكتوبة على الباب لا تجبرني، ولا الحارس يستطيع منعي، بكل بساطة أستطيع أن أقترح باب الخروج وأدخل منه، لن يحدث شيء، سيقدم مني عامل الفندق، وسيقول لي: الدخول من هناك، وسأعذر إليه، بعد أن أكون قد دخلت، ولكنني سأختار المرور عبر القوس، هذه هي حريتي.

يتقدم من عاملة الاستقبال، يحييها بلطف، ثم يقدم لها نفسه:

-أنا فريد ، فريد وحيد.

عاملة الاستقبال تبسّم ابتسامة خفيفة ، ترحب به ،

وتقول:

- أهلا بك أستاذ فريد.

وتلتفت ، تستل من الخزانة وراءها جواز سفر بداخله

بطاقة طائرة ، تضعه أمامه على المنصة ، وهي تقول:

- هذا جواز سفرك ، وعليه الفيزا ، وفيه تذكرة

الطائرة ، السيدة فرانسيس في غرفتها.

وتتظر في ساعة يدها ، ثم تضيف:

- بعد ربع ساعة بالضبط ستصل سيارة إير فرانس

لتحملكما إلى المطار ، تفضل انتظرها في المقهى ، تفضل

جواز سفرك ، وبطاقتك.

يدفع بيده نحوها جواز سفره ، وهو ما يزال على

المنصة ، ويقول لها:

- ضعيه من فضلك مع جواز السيدة فرانسيس.

ويهم بالمضي إلى الباب الجانبي المفضي إلى

المقهى ، فتسأله:

-أستاذ وحيد ، أين حقيبتك؟

يلتفت ، يبتسم بهدوء:

-أنا مسافر من غير حقائب، لا أحب حمل أي شيء،
أحب الحرية.

ويخطا هادئة، يدخل إلى المقهى ذي الواجهات الزجاجية
المطللة على تقاطع أربعة شوارع.

المقهى غير مزدحم، معظم المناضد شاغرة.

هنا يمكن أن أختار بحرية، لا زحام، والمناضد
كثيرة، الزاوية هناك مطلة على تقاطع الشوارع الأربعة،
مجال الرؤية أمامي واسع ومفتوح، يتيح لي حرية الرؤية.
لن أنتظر النادل حتى يأتي إلي ليمنحني حرية الاختيار،
أنا سأختار بنفسني وبحرية مطلقة.

ويشير إلى النادل، وقبل أن يتكلم النادل يقول له:

-لا تعرض عليّ ما عندكم، لا تخيرني، أنا سأختار
لنفسني بنفسني، بحرية، أريد فنجان قهوة من غير سكر.
ينحني النادل باحترام ويمضي.

اليوم، ولأول مرة بحياتي، أحس أنني بدأت أمارس
حرיתי الشخصية، بصورة مطلقة، طوال خمس وثلاثين
سنة، لم أحس فيها بمعنى الحرية، ولم أعرف معناها.

مجموع علاماتي في الشهادة الثانوية فرض عليّ
الانتساب إلى كلية الحقوق، كنت أتمنى الانتساب إلى

كلية الفنون الجميلة، هوايتي الرسم، من حرية اللون إلى قيود القوانين، وأبي وحيد، واسمي يجب أن يكون فريد، من أجل القافية، كلمة يجب دائماً هي الواجب المقدس، ولدت في أسرة غنية، أبي طبيب جراح، لا خيار لي في سلوكي وتصرفاتي وأعمالي وكلماتي، حتى ثيابي يجب أن تناسب الأسرة التي أنتمي إليها، وبعد التخرج يجري تعييني في أمانة السجل المدني، قسم حالات الولادة، ثم نقلت إلى قسم حالات الوفاة، عينت، ثم نقلت، هم عينوني، وهم نقلوني، والولادة لا حرية فيها ولا اختيار، والموت لا حرية فيه ولا اختيار، منى أحببتي، هي زميلتي في قسم الولادات، هي أحببتي، وعرضت علي الزواج، لا حرية لي في اختيارها، في السنة الرابعة أحببت سنية، وتولت بها حبا، ثم سألت نفسي، هل حبي لها حرية؟ لو لم تكن زميلتي في السنة الرابعة، ما كنت أحببتها، حبي لها مشروط بزمان ومكان، السنة الرابعة، والجامعة، ثم اختارت لي أمي ابنة خالتي، أي ابنة أختها، وهل هذا اختيار؟ نخدع أنفسنا، حين نقول اخترنا، ثم دارت سبع حارات، ورأت عشر فتيات، وقالت لي اخترت لك، شقراء، زرقاء العينين، رشيقة الحركات، هو اختيار مقيد بالجسد، حتى زميلي في السجل المدني، لم أختره، ولم يخترنني، الزمالة فرضت علينا.

ويتقدم منه النادل يضع أمامه على المنضدة فنجان
القهوة، ويهم بوضع كأس ماء، فيصيح به:
- لم أطلب كأس الماء، لماذا تفرضها علي؟
النادل يرفع الكأس، ويهمس:
- اعدرني، هذه هي العادة.
- ولماذا هي عادة؟
- هكذا أوصانا مدير المقهى.
- لا تنفذ، مَنْ أجبرك؟
- أنا عبد مأمور.
- لا تقل هذا، ارفض، لا تنفذ، قل أنا حر، اصنع
حريتك.

فرانسييس هي الحرية الحق، لا أعرفها، ولا تعرفني،
تعرف القليل من العربية، وأعرف القليل من الفرنسية، في
الرصيف المزدحم، استوقفتني، بحرية مطلقة، سألتني عن
موقع المتحف، وبحرية مطلقة، عرضت عليها أن أصحابها
في الزيارة، هذه هي الحرية الحق، غير مشروطة بزمان أو
مكان أو قرابة أو لغة أو تاريخ أو ثقافة، خلال ثلاثة أيام
أصبحنا صديقين، خلال يوم واحد، حصلت لي على فيزا،
وبعد ساعتين تقلع بنا الطائرة إلى باريس، عاصمة النور،
قالت لي: الحرية الحق هناك في باريس.

ويأخذ رشفة من الفنجان، يرفع عينيه، يرى عبر زجاج المقهى إشارة المرور عند التقاطع.

حمراء، تقف السيارات، خضراء، تسير السيارات، والشرطي يشير إلى السيارات بيديه، يمنح الحرية لهؤلاء، ويقىد أولئك، ثم، ما هذا الجنون، هل هو حقاً مالك الحرية، وهل هذه حرية، ولماذا يطيع السائقون إرادته، هذه هي قيود الزمان والمكان، حتى المشاة، تقيدهم إشارة المرور، وما هذه القضبان الحديدية على جانب الرصيف، كأنني أراها أول مرة، لا حرية حتى للمشاة على الأرصفة. ويرفع فنجان القهوة إلى فمه.

لماذا بعد ربع ساعة؟ لماذا لا تنزل فرانسييس فوراً؟ ولماذا الانتظار هنا في مقهى الفندق؟ ربع ساعة في مقهى الفندق، الزمان والمكان، ولماذا فرانسييس بالذات، لو لم تكن سائحة قادمة من باريس لما صادفتني على الرصيف، هي اختارتني، وأنا عبد مأمور، كما قال النادل، حقيقة، عبد مأمور، لماذا لا يرفض هو؟، لماذا لا أرفض أنا؟، سأرفض، لا، قهوة، ولا فرانسييس، ولا كأس ماء، أين الحرية، لا يوجد حرية.

وأطلت من باب المقهى صبية شقراء، تحمل جوازي سفر بيدها، رآها، فنهض، حمل فنجان القهوة، قذفه نحو الزجاج، تحطم الفنجان، واندلقت القهوة.

وقبل أن تصحو هي والرواد من هول المفاجأة، كان
الرجل قد صار في الشارع، يركض بين السيارات المنطلقة،
والناس ينظرون إليه وهم يضحكون، وهو يشير بكتا يديه
ويصيح:
- لا حرية، حتى في باريس.

زيارة إلى المستشار

وقف عميد الكلية وراء المنصة، وقدم إلى طلابه ضيفه
سعادة المستشار، وعرفه بأنه كان أستاذه أيام التحضير
لرسالة الدكتوراه، ونهض المستشار، صافح العميد، ثم
وقف أمام المنصة، لا وراءها، وقال للطلاب:

- أريد أن أكون أمامكم، لا وراء المنصة، أريد أن
أكون معكم.

طويل، شعره أبيض، مشرب بالحمرة، لم تسقط منه
شعره، وهو قريب من السبعين، عيناه واسعتان، زرقاوان،
تأتلقان، يتكلم وهو يشير بيديه، بدلة بيضاء، تحتها
قميص أسود، فوقه ربطة عنق بيضاء، عقدتها بسيطة.

بدأ الكلام، وهو يمسك لاقط الصوت بفتية عالية.

- سأحدثكم اليوم عن القانون الدولي، قانون
البحار، تعرفون أن 12 ميلاً هي مسافة المياه الإقليمية، وما

بعدها مياه دولية، لكن هل هذا خاص بالتجارة أو الصيد
أو بالأساطيل.....

وذهبت سلمى إلى البحر، شردت وراء يديه وهو يشير
بهما، تلقت من عينيه نظرة، كأنها نظرة نسر جارح، ردتها
إليه بأقوى، المحاضرة لها وحدها، حذاؤه أسود لامع، أنيق،
مشيته متميزة، وهو يروح ويجيء، طوله فارغ، كل شيء
فيه مختلف عن كل الأساتذة، لماذا لا يحاضر فيهم؟ كل
الأساتذة يقعدون وراء المنصة ويتكلمون، لا أحد منهم
يقف، حتى الدكتور فيصل، ابن الثلاثين، يقعد، ولا
يتحرك، بنطاله مكوي، حده واقف مثل حد السيف، وهي
تنظر إليه من أسفل، تحس أنه أطول مما هو في الحقيقة،
صدر عريض، بطنه ضامر، تلقت منه نظرة ثانية إلى
قميصها المفتوح عن صدرها، أحست باللؤلؤة البيضاء المعلقة
بسلسلة ذهبية قد اشتعلت ناراً، أمسكتها بإصبعيها،
وضعتها بين شفتيها، السلسلة تكاد تنقطع، لتسقط اللؤلؤة
بين النهدين.

هائل صديقها إلى جوارها، يحاول الالتصاق بها، وهي
تبتعد عنه.

أخذت تداعب أزوار قميصها المفتوح، تضع رجلاً فوق
رجل، تضغط فخذها الأيمن على فخذها الأيسر، عقدت

يديها على صدرها، مثل تلميذة مؤدبة، ضغطت على نهدتها، عقدت يديها تحتها، مالت على سطح المقعد، وضعت عليه صدرها، أحست أن عيني المستشار ونظراته تنصب على فتحة القميص، حيث اللؤلؤة تكاد تنصهر.

صديقتها هائل يميل عليها، يهمس لها:

- عجوز مُهلٌ، يحسب نفسه في عز الشباب.

تهمس له، وهي تبتعد عنه أكثر من غير أن تلتفت إليه:

- يسلم ذوقك، ترك الشباب كله لك.

انتهت المحاضرة، وكانت أول من رفع يدها تريد

السؤال:

– أنا سلمى، طالبة في السنة الأولى بقسم القانون الدولي، تحدثت حضرتك عن حق الدولة في قصف أي هدف غريب يدخل مياهها الإقليمية، لنفترض أن زورقاً صغيراً دخل المياه الإقليمية، وفيه شاب وصبية، هل يجوز تدمير الهدف؟

وضجت القاعة بالتصفيق، وضحك المستشار، ثم علّق:

– في هذه الحالة تصبح كل المياه دولية عالمية، لأن

الحب عالمي.

ومرة أخرى ضجت القاعة بالتصفيق.

أسئلة الطلاب كثيرة، وخصوصاً الطالبات.

أحست بالقهر، أرادت إنهاء الأسئلة، تضايقت من أسئلة الطالبات، وهي تتلقى نظراته.

بدأ يوزع مجاًاً على الطلاب نسخاً من كتابه: "الإبحار"، لم تقترب، انتظرت حتى نفذت النسخ، وهو يغادر القاعة اندفعت نحوه، وقفت أمامه، التصقت به، دفعت صدرها نحوه، رفعت وجهها إليه:

- أين نسختي؟

ملاً عينيه من وجهها، غاصت في عينيه الزرقاوين، صمت وصمتت، هنيهة هي عمر، ثم علق:

- لك نسخة خاصة، محفوظة.

علق عميد الكلية الواقف إلى جواره:

- تأخذينها غداً من مكنتي.

انسلت من بين زملاء وأسرعت إلى حديقة الكلية.

استلقت على المرج الأخضر، تحت أشعة شمس آذار الدافئة، وراحت تتذكر طوله، وصدره العريض، وهداً بنطاله الواقف مثل السيف، وتتذكر أناقته، ربطة عنقه حريرية ناعمة طويلة، أنيقة، عقدتها سهلة.

فتحت حاسوبها، واتصلت بالشبكة، كتبت اسمه وبدأت تبحث عن سيرته، ومؤلفاته، وعمله.

أصابعها تداعب اللؤلؤة المدلاة من عنقها فوق الحاسوب، وهي تميل بوجهها عليه.

هذا هو مكتبه الخاص، غرفة طويلة، جدرانها مملوءة برخوف الكتب إلى السقف، مرتبة بأناقة، كرسي كبير هزاز قبالة النافذة، أمامه منضدة مستديرة، عليها غليون وعلبة تبغ خاص، طاولة المكتب كبيرة، يتوسطها حاسوب، على يمين الطاولة كتب موضوع بعضها فوق بعض بعناية، في مقدمة المنضدة صف من الكتب مركونة على حافتها، يسند بعضه بعضه الآخر، على يسار الطاولة مزهرية فيها زهور طبيعية جديدة، شذاها يملأ المكتب، وهو وراء المنضدة، مكب على الحاسوب، تقف أمامه، يرفع رأسه يفاجأ بحضورها، تميل عليه، وهي تداعب اللؤلؤة المدلاة بسلسلة ذهبية من عنقها، تهمس:

- أريد نسختي.

تمد إليه راحة يدها:

- وأريد توقيعك.

ينهض، يتقدم منها، يداعب ذقنها، وهو يملأ عينيه من وجهها، يمضي إلى أحد الرفوف يستل كتاباً، يلتفت إليها ليقول لها:

- سأهديك كتاباً جديداً عنوانه أيضاً "الإبحار"،
لكنه ليس عن قانون الإبحار، هو ديوان شعر.
تأخذ مكانه وراء المنضدة، تجد أمامها وراء الكتب
مسدساً، تلتقطه، تلوح به بيدها، يشير إليها بيده منبهاً:
- أرجوك، ملقم، فيه تسع رصاصات جاهزة
للإطلاق.

- لماذا تسع رصاصات؟
- لكي يمنح الحياة الأبدية.
تشم فوهة المسدس:
- نقي، نظيف، متألق، كأنه لم يمنح الحياة لأحد،
مع أنه في عمرك، أو أكبر.
- ما استعملته أبداً.
- لا أريد الكتاب، ولا التوقيع، أريد المسدس
برصاصاته.
- لا، أرجوك، هو خاص جداً، خذي المكتبة كلها،
إلا المسدس.
- لأنه خاص، أريده.
وتوجّه المسدس نحوه، وتضغط على الزناد.

وتدوي طلقة.

وترفع رأسها، تنهض، وتتقطع السلسلة الذهبية،
وتسقط اللؤلؤة فوق المرج الأخضر.

وإذا صديقها هائل قد صفق بكتا يديه فجأة بجوار
أذنها وهي مكبة على الحاسوب.

تلكمه في صدره بقبضتي يديها وهي تصيح:

- سخيف، بارد، مزعج.

هائل يلقي نظرة على شاشة الحاسوب، يرى صورة
المستشار، وهو في مكتبه، يسألها:

- أعجبك العجوز، وجئت تتقصي سيرة حياته؟! عيان
حمراوان متورمتان، ووجه لا حياة فيه، وبدلة قديمة من عهد
نوح، ومحاضرة ألقاها من عشرين سنة ألف مرة.

تنظر إليه مستاءة، لا ترد، يضيف:

- ما الذي أعجبك فيه؟ لأنه يشبه والدك أو جدك؟!

تسرع إلى الحاسوب، تغلقه، تحمله، تضمه إلى
صدرها، تعلق:

- لم يعجبني أحد، لا أنت ولا هو.

- لماذا لم يعجبك؟

- أهدي كل الطلاب نسخاً من كتابه، ونسي
إهدائي.

- هذا غير صحيح، أنت تأخرت عن قصد، حتى
نفدت النسخ، أنا رأيك، أنت كنت ناوية على أمر.
يطوق خصرها بيده، ويقول لها:
- خذي نسختي.

تبعد يده عن خصرها، تبتعد عنه:
- أرجوك، اتركني، لا أريدك ولا أريد نسخته، ما
عدت أريد أي شيء.

تميل نحو الأرض، تلتقط السلسلة الذهبية، واللؤلؤة.
تسرع إلى مكتب العميد، تقول للسكرتيرة:
- سعادة المستشار وعدني بنسخة خاصة من كتابه،
فقط أريد معرفة عنوان الفندق الذي ينزل فيه.

العصفورة... وبائع الحظوظ

أخْرُجُ من الصيدلية، في حي الأندلس، حاملاً كيس
الدواء بيد، ومتوكِّئاً على عصاي بيد، وقد بلغت السبعين،
أسمع صوت حسُونٍ يُطْلِقُ تغريداً متميزاً، وأنا أسير على
حافة الشارع، بجوار الرصيف، فقد صُنِّفْتُ على الرصيف،
وبالعرض، أربع سيارات سود كبيرة الحجم، من ذات الدفع
الرباعي، أرفع رأسي، فأرى قفصاً كبيراً فخماً فوق إحدى
السيارات، أقف أتأمله. ومن الرصيف المقابل، أنتبه إلى
خروج رجل ضخم الجسم، من معرض كبير للسيارات، فيه
ست سيارات من النوع نفسه، يقترب مني، وهو يسأل بشيء
من السخرية:

- عمي الحاج يفكر بشراء سيارة لحفيده في عيد
ميلاده؟

أَلْتَفَّتُ إليه، أتأمل جسمه الضخم، واللغد المتدلي
تحت عنقه، والبطن المدورة الممتلئة. أردت بهدوء:

- أنا أتأمل جمال الحسون، وأستمع بصوته.
- ولكنه ليس للبيع، لو دفعوا لي مليون ليرة فلن أبيعه.
- الله يسعدك به، تعيش وتستمع بصوته، ولا يضطرك إلى بيعه.
يعلق بجفاء:
- لا يهمني لا لونه ولا صوته، من حين شرائي له، قبل سنة، وإلى اليوم، كلما وضعته فوق سيارة، جاء زبون فوراً واشتراها، هو فأل خير.
أعلق:
- أنا والله يا بن أخي، فُتِّتُ بصوته وبرشاقة حركاته، ذكّرني بحسون كان....
يلتفت الرجل الضخم إلى الرصيف الثاني، وينادي أجيراً عنده، وهو يصيح:
- يا حسن، تعال، أدخل الحسون إلى الصالة، أخاف عليه من العين الصيَّابة، وأنت يا عمي، صلِّ على النبي، وامش في حال سبيلك.
- هذا ما حدث معي اليوم وأنا خارج من الصيدلية، أدبُ على عصاي، وأتذكر العصفورة وبائع الحظوظ في باب الفرج....

على الرصيف بين مقهى الانشراح وفندق النجمة يقف
إلى جانب القفص، وفيه عصفورته، وهو ينادي:

- حظك اليوم.

كان ذلك قبل خمسين سنة أو أكثر حوالي عام
1965، وكنت طالباً في المرحلة الإعدادية، أنزل من
الحافلة في المنشية، مركز تجمع الحافلات وانطلاقها،
وأصبح اليوم اسمها المنشية القديمة، لأنه تم إنشاء منشية
جديدة، في منطقة باب الجنين، كنت أنزل من الحافلة بعد
انصرافي من المدرسة، وأمضي إلى دار الكتب الوطنية،
لأقعد في قاعتها الكبيرة، وأراجع دروسي، كنت أشتري
صندويشة فلافل، من محل فلافل الفيحاء، مقابل المنشية،
وأشرب معها كأس عيران، وقد زالت الآن كل تلك
المحلات، ثم أمضي إلى دار الكتب. ولا بد من أن أمر
ببشير، وأقف أمامه، أتفرج على العصفورة وأراقب الناس،
في الذهاب والإياب، وأتسلى.

في باب الفرج المنطقة الأكثر ازدحاماً بالناس من
قلب المدينة، اختار بشير هذا الموقع، قريبا من ساعة باب
الفرج، بجوانبها الأربعة، تنهض سامقة، وهي الساعة التي
تتميز بها مدينة حلب، على الطرف الأيمن تنهض دار
الكتب الوطنية، حيث يرتادها كل يوم الطلاب،

ليستعبروا منها الكتب، وليجدوا في قاعاتها الكبيرة مكاناً للدراسة والتحضير والمطالعة. على الطرف الأيسر يربض مخفر باب الفرج، حيث يتقاطر إليه كل يوم العشرات، لا من أجل الشكاوى والخصومات والدعاوى فحسب، بل من أجل بيان بتسجيل مولود، أو تثبيت عقد زواج، أو الإعلان عن فقدان بطاقة الهوية الشخصية. وعلى الجانبين من الشارع الذي يخترق المنطقة، تصطف المطاعم الرخيصة، ومحلات بيع الألبسة الشعبية، والحلويات، والمثلجات، والمسجلات والأحذية والساعات، وعلى الرصيف الذي يقف عليه، وعلى الرصيف المقابل أيضاً، تزدحم بسطات كثيرة لبيع الجوارب والألبسة وتصليح الساعات، وتصطف أمام الرصيف كثير من العربات لبيع الفاكهة والمكسرات والحلويات الشعبية. ويعلو نداء باعة الجوارب أو قطع الحلوى الصغيرة أو العلكة أو الألبسة المستعملة، ليصكوا أسماع المارين على الرصيف، في حين يضيع صوت بائع الحظوظ بين نداءاتهم، وهو ينادي بهدوء:

- حظك اليوم.

ويمر به الناس، متزاحمين، في الرصيف الضيق، ولا يكاد يلتفت إليه إلا قليل منهم، وأكثر ما يتجمع حوله الأطفال، وهم ينظرون إلى عصفورته وهي تتقافز في

القفص. وعلى يمينه يقف صديقه عزيز، وقد مد على الرصيف ملاءة سوداء، نشر عليها جوارب رخيصة، وعلى شماله يقعد على كرسي خشبي واطى صديقه عثمان، وبين يديه حذاء لأحد رواد المقهى، يجهد في مسحه، وأمامه صندوق مسح الأحذية.

ويقف أمام القفص رجل طويل نحيل، في نحو الثلاثين من العمر، يطيل النظر إلى الأوراق المطوية، ثم يسأل:

- هل الحظ المكتوب في الورقة صحيح؟

فيرد عليه بائع الحظوظ بهدوء:

- حظك لا يعلمه إلا الله.

فيزداد فضول الرجل الطويل ، ويسأل:

- هل أسحب أنا ورقة حظي؟

فيرد البائع:

- لا ، العصفورة هي التي ستسحب ورقة حظك.

على منضدة خشبية صغيرة، ذات ثلاث قوائم، بعُلو المتريربض القفص الصغير، وأمام باب القفص يمتد صندوق خشبي صغير، رصت فيه وريقات صغيرة مطوية، تنتصب قائمة على حافتها.

وينقده الرجل خمسة قروش، فيفتح باب القفص، وينقر على الوريقات المنتصبة، فتخرج العصفورة، وبمنقارها تلتقط وريقة، يأخذها صاحب العصفورة بإصبعيه، ويناولها إلى الرجل، وترجع العصفورة إلى الداخل، بكل أمان واطمئنان. ويفتح الرجل الطويل الوريقة المطوية، ويأخذ في قراءتها، وعيناه تلتمعان، وطيف ابتسامة يلوح على ثغره، ويقف إلى جواره رجل بدين قصير مدور، كأنه الكرة، يمدُّ عينيه إلى الورقة، فلا يصل إليها، يريد قراءتها، ولكن الرجل الطويل كان قد فرغ من القراءة، فيطويها على نحو ما كانت مطوية، ويلتفت للبائع يسأله:

- هل أردتها إليك؟

فيقول له بائع الحظوظ:

- لا، هي لك، احتفظ بها.

ويسأله الرجل القصير المتطفل:

- كيف هو حظك اليوم؟

فيضحك الرجل الطويل، ويجيبه قبل أن يمضي:

- الحمد لله، العصفورة اختارت لي الحظ الجميل،

وزادت من إيماني بالله، والتوكلُّ عليه.

ويسأل الرجل القصير البدين المتطفل:

- هل الأوراق كلها مثل بعضها؟
وبهدوء يرد بآئع الحظوظ:
- لا، كل ورقة مختلفة عن الأخرى، الدنيا حظوظ.
ويسأله الرجل القصير البدين:
- بكم ورقة الحظ؟
- بخمسة قروش.
- ويضع الرجل القصير البدين يده في جيبه ويمضي،
وهو يغمغم:
- حظي أعرفه، لا أريد خسارة خمسة قروش، أشتري
فيها كأسين من السوس أبل بهما قلبي.
- ويتقدم منه رجل في نحو الأربعين ويسأل:
- ماذا في الورقة؟
- مكتوب فيها حظك هذا اليوم.
- أنا لا أعرف القراءة.
- تعطيها لشخص يقرؤها لك.
- يشير بيده وهو يمضي:
- سلم على العصفورة وقل لها: عمك لا يعرف القراءة.
ويؤذن لصلاة العصر فيؤدعُ القفص والمنضدة
بالمقهى، في المطبخ عند العمال، ويسرع إلى الصلاة في

المسجد الصغير القابع وراء مخفر الشرطة، حيث دفن
السهروردي.

وهو خارج من الصلاة، وعند الباب، يلتفت إليه أحد
المصلين، ليقول له:

- عرفتك، أنت صاحب القفص والعصفورة.

_ نعم، أنا هو.

- صلاتك غير مقبولة.

- ولماذا يا أخي؟

- تحبس خلق الله في قفص ثم تأتي إلى الصلاة! أطلق

العصفورة، أولاً، ثم تعال إلى المسجد لتصلي.

صاحب العصفورة يمضي وهو يغمغم في سره:

- حسبي الله، ونعم الوكيل.

ويرجع إلى موضعه على الرصيف، يقف إلى جانب

القفص، لا يأتي بحركة، ولا ينادي، ولا يتكلم.

وتقف أمامه سيدة عجوز، تتأمل العصفورة، ثم

تسأله:

- ابني، هذه العصفورة للبيع؟

- لا، يا خالة.

- ولماذا وضعتها هنا على الرصيف؟

- هذه العصفورة تسحب ورقة الحظ.
- السيدة العجوز تهتم بالمضي، وهي تقول:
- حظي وعرفته، وما بقي لي في الدنيا أي حظ.
- ولكن ما تلبث أن تلتفت إليه، وتقول له:
- ابن ابني توفي أبوه، العمر لك، وأمه تزوجت، وأنا أربيه، أريد معرفة حظه.
- حظي هنا على الطاولة خمسة قروش.
- ولماذا؟
- ثمن قنيز للعصفورة.
- ما شاء الله، عصفورة مُدَلَّة، القنيز غالي الثمن،
- ضع لها الخبز اليابس.
- القنيز أكلها، لا تأكل غيره.
- وتمد يدها بخمسة قروش، وتهتم بسحب ورقة، فيقول لها:
- لأ، العصفورة سوف تسحب الورقة.
- وبخفة، يفتح باب القفص، فتتهبط العصفورة، تمد رأسها من الباب، ويمنقارها تحمل وريقة مطوية، يسحبها من منقارها، ويناولها إلى المرأة.
- تقول له:

- عصفورة ذكية، ما شاء الله، تستحق القنبر، سأشتري لابن ابني مثلها.
- وتأخذ الورقة، ولكن ما تلبث أن تلتفت إليه:
- لكن يا بني، والله لا أعرف القراءة، خذ اقرأها لي.
- ويعلق بآع الحظوظ:
- والله يا خالة، أنا مثلك، لا أعرف القراءة. تدق صدرها بيدها، وهي تسأل مدهوشة:
- وكيف تكتب حظوظ الناس؟
- زوجتي تكتبها لي.
- ويتدخل أحد الشباب، ويقول للعجوز:
- هاتي يا خالة، أنا سأقرأها لك.
- وقبل أن يتم الشاب قراءة الحظ، وإذ بشرطي يهجم على المنضدة الخشبية ذات القوائم الثلاث، في حين يحمل عثمان ماسح الأحذية صندوقه، ويدخل إلى المقهى، ويلم عزيز ملاءته والجوارب، ويركض.
- ويلتقط بآع الحظوظ القفص، ويتوسل إلى الشرطي:
- أرجوك، والله اشتريتها بالدين، ما وفيت ثمنها، الأسبوع الماضي كسرت لي واحدة.

وتتدخل العجوز:

- اللّهُ يرضى عليك يا بني، اتركه يرتزق.

ويلقي الشرطي المنضدة على الرصيف، ثم يطؤها
بقدمه، لكنه فيما يبدو لا يريد تحطيم قوائمها الثلاث، بل
يكتفي بتحطيم قائمة واحدة، لعله أشفق على الرجل، ثم
تركها له، ومضى، فمن الممكن أن يصلحها النجار، أو
لعله أشفق على حذائه العسكري من أن يחדش. في المرة
الماضية كان قد حطمها كلياً، وجمع قطع خشبها،
وحملها معه، ربما ليحرقها في البيت ويستدفئ بها.

ويحمل بائع الحظوظ المنضدة المحطمة، ويدخل بها
وبالقفص إلى مدخل الفندق، يختبئ فيه. وهو يتأمل القائمة
المحطمة، ويفكر في إمكانية أن يصلحها بنفسه.

وتلحق به العجوز، تسأله:

- لماذا حطمها؟

- ممنوع الوقوف على الأرصفة.

- كم ثمنها؟

- واللّهُ يا خالة، اشتريتها بالدين، بخمس ليرات، هي

ثمن خمسين ورقة من أوراق الحظ، وأنا لا أبيع في يومي
عشر ورقات.

وتمد العجوز يدها إلى صدرها، تخرج كيساً صغيراً
من قماش معلقاً في رقبته بخيط، تفتحه بأصابع راجفة، ثم
تناوله ليرة معدنية، وتقول له:

- خذ هذه ليرة، اقبلها مني.

وتهم بالمضي، ولكنها ترجع، لتسأله:

- لكن الشرطي ما رأى غيرك؟ البسطات هناك على
طول الرصيف.

- واحد منهم يعطيه جوربين، والثاني يسقيه كأس
تمر هندي، والثالث والرابع، أنا ماذا سأعطيه؟ ورقة حظ،
صديقي عثمان يمسح بوطه العسكري، ومع ذلك لا ينجو
منه، ولا يطمئن.

تمضي العجوز، وهي تدعو له:

- الله يوفقك يا بني، ويُعمي عين الشرطي عنك.

ويحمل بائع الحظوظ منضدته والقفص، ويصعد درج
الفندق، إلى السطح، يضع القفص في الظل، ويبحث في
أطراف السطح عن صندوق محطم، أو منضدة مكسورة،
لا بد من أن يعثر على قطعة خشبية.

وينزل إلى الفندق، يستعير من المدير، مطرقة وبضعة
مسامير، ويرجع إلى السطح، يجهد في تصليح منضدته
الصغيرة، ذات القوائم الثلاث.

لا بأس، يمكن أن تقف، ستسندها إلى الجدار، لا شك أن الشرطي قد أحس بالندم لتحطيمه الأسبوع الماضي المنضدة، لقد أخذته الشفقة اليوم.

يطل على الشارع، والسيارات تغدو ذاهبة آبية، والمشاة على الرصيفين. أمامه، على الرصيف المقابل يتألق مطعم أبو شريف، وروائح شواء اللحم تصل إليه عبر الشارع العريض، وفي واجهة المطعم علقت فخذات ثلاثة خواريف. ربع كيلو كباب مع السلطة واللبن بليرتين، وليس معه غير ليرة.

وإلى جوار مطعم أبو شريف يقبع مطعم أبو جاسم، بجدرانه البيضاء المتألقة، بشقيه الاثنين، شق على اليمين للحلويات، وشق على اليسار للكوارع ورأس الخروف، وبينهما درج من حديد حلزوني صاعد إلى السقيفة، حيث هناك بضع موائد، وفي الشق الأيسر من المطعم يقف أبو جاسم وراء حلة الكوارع والرأس، وبيده المغرفة. ناس يدخلون إلى مطعم أبو شريف، وناس يدخلون إلى مطعم أبو جاسم، لماذا لا يكون هو واحدا من بين أولئك، أو هؤلاء؟ بليرة واحدة تتناول صحنين، صحن فته القشة، مع لحم الرأس والكوارع، وبعدها تتناول صحن بقللوة، فيه ثلاث قطع.

ويمد يده إلى جيبه، يتحسس الليرة.

أرسل الله لي تلك العجوز، منحنتي ليرة، وفي جيبى
خمسون قرشاً، نصف ليرة، هذا رزقي لهذا اليوم، والمنضدة
استطعت تصليحها بنفسى، جبرها الله.

يترك المنضدة على السطح، إلى صباح يوم غد، لن
يسرقها أحد، يحمل قفص العصفورة، وينزل على الدرج،
يعيد المطرقة إلى مدير الفندق، يعيد إليه بعض المسامير التي
زادت عن حاجته، ويعبر الشارع إلى بائع الكوارع.

- السلام عليكم

- أهلاً بشير، بائع الحظوظ، كيف رزق عصفورتك

اليوم؟

- الحمد لله.

ويناوله ليرة وخمسين قرشاً، وهو يقول له:

- حظ لي في سطل من عندك بليرة ونصف، وأكثرُ

من المرققة.

يملاً أبو جاسم السطل ويناوله إياه، وهو يقول له:

- ملأت لك السطل بقيمة ليرتين، ولن آخذ منك غير

ليرة واحدة.

يتناول منه السطل النحاسي، وهو يقول له:

- اللّٰه يرزقك، ويزيدك في الصحة والمال والإيمان،
ويطوّل عمرك.

ويمضي، القفص في يد، والسطل في يد، يدخل في
حي الجديدة، يخترق الأزقة الضيقة، وهو الطريق الأقرب،
ليصل إلى زوجته وابنته، في حي الحميدية، قبل أن تبرد
المرقة.

مرة واحدة فقط جربت حظي، في الحقيقة، كنت
أريد الاستمتاع برؤية العصفورة وهي تخرج من القفص،
لتلتقط الوريقة، أكثر مما كنت أريد تجريب الحظ،
ناولته خمسة قروش، ففتح باب القفص، ومدت العصفورة
رأسها، فنقر بإصبعيه على الوريقات، فتناولت بمنقارها
واحدة، تناولها منها، ورجعت العصفورة إلى الداخل، ناولني
الوريقة، فتحتها، وقرأتها، وإذا فيها: "إرضاء الناس غاية لا
تدرى، كن مع اللّٰه ولا تبال، اعمل الخير وارم به في البحر،
ولا تنتظر الأجر"، التفتُ إليه وقلت له:

- يا عم، هذه حكم، وليست من نوع الكلام على
الحظ.

ابتسم وقال:

- صدقت، الحظ لا يعلمه إلا الله، وهو لا يتغير، ولا أحد يعرفه، لكن الحكمة تنفع.
- علقتُ، وأنا أحس بشيء من الاستياء:
- هذه يعرفها كل الناس، وأنا أحفظها، وأستطيع كتابة مثلها، نحن في المدرسة نكتب على اللوح كل صباح: حكمة اليوم.
- ضحك وقال:
- أنت ولد ذكي، وشاطر.
- تجرأت وسألته:
- سمعتك تقول إنك لا تعرف القراءة ولا الكتابة.
- نعم، هذا صحيح.
- ومن يكتب لك هذه الحكم؟
- زوجتي.
- خطها عادي.
- هي طالبة في السنة الأولى بكلية الشريعة.
- ليس عندنا بحلب كلية شريعة؟!
- في دمشق.
- لماذا لا تطبعها على الآلة الكاتبة؟
- اعتاد الناس على قراءتها بخط اليد.

- أنا أتعلم الطباعة على الآلة الكاتبة، هنا في حي العبارة، إذا أردتَ طبعتها أنا لك.
- شكرا، لا أريد إزعاجك.

كنت أمر به تقريبا في كل يوم، أو أمر به في الأسبوع عشر مرات، لأنني كنت أذهب إلى دار الكتب الوطنية في الأسبوع خمسة أيام، وربما كل يوم، ما عدا يوم الثلاثاء، لأن عطلتها الرسمية في يوم الثلاثاء. وكنت أقف أمام القفص في الذهاب والإياب، أتأمل العصفورة. وأعجب كيف تخرج من باب القفص، وتلتقط الوريقة المطوية وترجع إلى الداخل، ولا تطير. ولكنني ماسمعت تغريدها. مرة سألته:

- لماذا لا تغرد.
- أجابني وهو يبتسم:
- هذه أنثى، عصفورة، وفي عالم الطيور والعصافير لا تغرد الإناث، الذكور هي التي تغرد.
- لا أعرف لماذا أحسست بالخيبة، هي جميلة، تمنيت لو اكتمل جمالها بالتغريد.

منقارها ناعم مُدَبَّب، تلتقط به الوريقة المطوية
بحداقة، وجهها يكسوه ريش أحمر قان، كأنها تحس
بالخجل، تحيط باللون الأحمر هالة عريضة من ريش أبيض
نقي، كأنها قديسة، وتلي الهالة العريضة هالة أخرى
سوداء، ولكنها غير عريضة، تزيدها وقاراً، ثم يمتد الريش
الأبيض إلى أسفل ليغطي صدرها وبطنها، جناحها
أسودان، يتوسطهما ريش أصفر فاقع، وكذلك ذيلها،
وظهرها بني فاتح، تشكيلة رائعة، كأنها كأس مثلجات،
فيه مثلجات الحليب والكرز والشيكولاته، وعيناها
سوداوان، نظرتها حادة، ثاقبة، تميل برأسها، وتتنظر إليك،
ثم تحركه، وكأنها تكلمك، أو كأنها تقول: عرفتك.
كنت أحدق في عينيها، وأحس من خلال نظرتها أنها بدأت
تعرفني.

ذات صباح وقف أمامه رجل ضخم الجثة، طويل، له
بطن واسعة ممتدة إلى أمام، أشار إلى العصفورة، وعيناها
مفتوحتان بقوة، ثم قال له بلهجة الأمر:

- بعني هذه العصفورة، عندي ذكر يليق بها.

رد بآع الحظوظ بتواضع:

- ليست للبيع، أنا أعيش بفضل الله وبفضلها، هي سبب رزقي.

ضحك الرجل، مسح بطنه بيده، وقال:

- أدفع لك خمسين ليرة.

والتفَّ حولهما الناس، قال له أحدهم:

- لو كنت في مكانك لبعثتها.

رد بائع الحظوظ:

- تعبت كثيرا في تربيتها، حتى علمتها التقاط الأوراق المطوية.

ضحك الرجل الضخم، وقال له:

- خذ مئة ليرة.

وقف الناس من حوله صامتين، وبائع الحظوظ يردد:

- أخي، هذه العصفورة باب رزق لي.

يضحك الرجل الضخم، ويعلق:

- خذ ألف ليرة، وأعدك بعد شهر أعطيك فرخين بدلا منها.

اشمأزت نفسي من الرجل، تركته ومشيت، اتجهت إلى دار الكتب الوطنية، أخذت مكاني وراء إحدى المناضد الكثيرة، وبدأت بتحضير درس في النحو.

ألف ليرة ثمن عصفورة؟ هي راتب مدرس اللغة العربية لأربعة أشهر، هكذا حكى لنا أستاذ اللغة العربية، يمكن أن يبيعها ويشتري غيرها بعشر ليرات، لا بألف، مرة رأيت في المنشية رجلاً معه قفص فيه عشرات من هذه الحساسين الملونة، كان ينادي: "الحسون بعشر ليرات"، وأذكر أن أحد الرجال سأله: "كم حسون عندك؟"، فأجابه البائع: "كان عددها ثلاثين، بعث خمسة حساسين"، ويفتح الرجل محفظة جلدية صغيرة، يناوله وريقات نقدية ويقول له: "خذ، هذه ثلاثمئة ليرة، سأشتريها كلها"، ويتناول منه القفص، ويلمح البصر، يفتح باب القفص، ثم يطلقها كلها، فتطير في فضاء المنشية، تحط على أسطح الحافلات، فوق الواقيات أمام المحلات، على أغصان الأشجار، حسون يقع على الأرض بعد قليل من التحليق، البائع يسأله مدهوشاً، وهو لا يكاد يصدق، "لماذا أطلقتها، كيف ستجد طعامها، هذه لا تأكل إلا القنبز"، الرجل يرد: "أنا ذقت السجن ثلاثة أشهر، ونذرت لله إذا خرجت من السجن أن أطلق مئة عصفور"، ويضيف البائع: "ولكن هذه لا تعيش إلا في الأقفاص، ستموت"، يضحك الرجل، ويقول: "أنت لو جريت السجن يومين ما كنت سجت هذه الكائنات اللطيفة، ومن قال إنها لا تعيش إلا في القفص؟"، ويهم البائع بالمضي، وهو يحمل القفص الفارغ، ولكن

الرجل يلحق به، ويضع يده على كتفه، فيلتفت إليه، فيقول له: "هل تبيعني القفص؟"، الرجل صاحب القفص يحضن القفص إلى صدره، يتشبث به، ويوليه ظهره، وهو يغمغم: "عرفت قصدك، لا أبيعك القفص، ولا بألف".

لا أعرف لم أعد أستطيع التركيز ولا أفهم ما أقرأ، أطوي الكتاب، أضعه في الحقيبة، وأغادر المكتبة الوطنية، قاصداً إلى المنشية كي أعود إلى البيت، وأمر ببائع الحظوظ، فأجد العصفورة ما تزال في القفص، أتشجع فأقول له مؤيداً:

- ما قدرَ الرجل على شرائها منك.

ويرد مبتهجاً:

- والله لا أبيعها ولو بألفين، هذه حياتي، أنت لا تعرف، أنا وزوجتي تعبنا حتى علمناها، وهي من عمر ابنتي دلال، صار عمرها خمس سنوات، ربيت معها، وفي البيت تقف على كتفها، وتأكل من يدها، وتضم زوجتي كفيها على شكل حوض تحت الحنفية فتحط على يدها، لتستحم وتسبح.

ويصمت ثم يسألني:

- في أي صف أنت؟

- في التاسع.

- قلت لي مرة إنك تستطيع كتابة مثل هذه الحكم، زوجتي ستسافر إلى دمشق لتقدم امتحان الجامعة، ما رأيك بكتابة بعض الحكم؟ يمكنك نقل بعض الحكم المكتوبة على أوراق التقويم، خمس سنين وأنا في هذا العمل، لو أعرف القراءة والكتابة كنت كتبت أشياء جديدة.

ويصمت، ثم يضيف:

- سأعطيك ليرة عن كل خمسين حكمة. تلمع الفكرة في ذهني، أستاذ اللغة العربية، يقول لي دائماً: "أنت ستصبح كاتباً، أسلوبك جيد، وعندك أفكار ناضجة". أرد:

- تكرم يا عمي، أنا سأكتب لك مئة حكمة، ولن آخذ منك ولا ليرة، وسأطبعها لك على الآلة الكاتبة. ويمد يده إلى جيبه، يخرج بضع وريقات مطوية، ويقول لي:
- خذ هذه بعض الحكم، اكتب مثلها.
وأرد بشجاعة وقوة:

- لا أريد، أنا قرأت كتب المنفلوطي، وجبران خليل جبران، وعند كل واحد حكم كثيرة.
ويعلق:

- أريد الحكم البسيطة.

ويمر يومان، في اليوم الثالث، أحمل إليه أكثر من
خمسين حكمة، طبعتها على الآلة الكاتبة، وقصصتها،
وطويتها عدة طيات، ووضعتها في حقيبتني، وأسرعت إليه.
أمام القفص وقفت مبهوتا، دهشت، نظرت إليه،
تكلم ببطء والغصة تملأ حلقه، دمعت عيناه، بدأ الكلام:
- هل تذكر الرجل الضخم وعرضه شراء العصفورة

بألف ليرة؟

- نعم

- عينه صيابة.

- ماتت العصفورة؟

- لا

- أكلتها قطة؟

- لا، في اليوم نفسه، وبعد ذهابك بقليل، جاء رجل
وأعطاني خمسة قروش، وفتحت باب القفص، كالعادة،
ومرت فجأة شاحنة كبيرة، وأطلقت زعيقاً من بوقها
العريض، وطارت العصفورة.

- وما أمسكتها؟

- وقفت على الشرفة، في الفندق، صعدت إليها، وفور
وصولي طارت، باتجاه الرصيف المقابل، حطت على الواقية
فوق المطعم، قطعت الشارع، بين السيارات، ولكنها
طارت، وغابت عن الأنظار.

- وما ستفعل؟
- من يومين وأنا هنا، أنتظر عودتها، سترجع، لا تستطيع العيش خارج القفص، من أين لها القنبر؟ كل ما أخشاه أن تقع على الأرض فتلتقطها قطة، أسأل الله أن يلتقطها رجل يحب الحساسين، فيضعها في قفص، ويكرمها.
- أخرجت من حقيبتي الأوراق المطوية، وناولته إياها، أخذها، دسها في جيبه، وقال:
- أشكرك.
- صمتُ، ثم سألته:
- هل يمكن تدريب غيرها؟
- صعب، سنة كاملة دربتها أنا وزوجتي.
- ويقف رجل يسأل:
- أين العصفورة؟ أريد معرفة حظي اليوم.
- يرد بائع الحظوظ:
- اسحب ورقة بيدك، حظك تختاره بنفسك.
- الرجل يدير ظهره ويمشي، بائع الحظوظ يعلق:
- الناس اعتادوا على العصفورة، ما عدت أحصل في اليوم نصف ليرة.

بعد بضعة أيام أمر به، كالعادة، فأرى فتاة صغيرة تقف إلى جانبه، في نحو الخامسة من العمر، نحيلة، شقراء الشعر، لا تشبه والدها، أسأله:

- هي ابنتك؟

- نعم، ابنتي دلال، وهي ستسحب وريقة الحكمة.

أعلق:

- فكرة جيدة، سميتها وريقة الحكمة، هي أصدق، وأدق، كيف خطرت على بالك فكرة عمل ابنتك بدلا من العصفورة؟

يبكي، يمسح دموعه، يتكلم وهو يغص بالكلام:

- ليست فكرة، ولم تخطر على بالي، ولكن اضطررت إليها.

وتتهمر الدموع من عينيه، ويتكلم بصعوبة:

- هي ابنتي الوحيدة، ولا يمكن تركها في البيت وحدها.

أعلق سائلاً:

- أمها في دمشق تقدم امتحان الجامعة؟

يمسح الدموع، يتكلم بصعوبة:

- لم تصل إلى دمشق، انقلبت بها الحافلة، ماتت.

موضعه في باب الفرج بين مقهى الانشراح وفندق
النجمة ما يزال قائماً، لم أزره منذ سنوات وسنوات، ولكن
لا أظن أنني سأجد فيه بائع الحظوظ ولا القفص ولا
العصفورة.

ولكن - اليوم، وبعد مضي أكثر من خمسين عاماً
- ما أزال أذكره، ولا يمكن أن أنساه، ولا بد أن يذكره
كل من عرفه، ولا بد أن يكون قد عرفه كل من عاش في
تلك المرحلة من أهل حلب.

في حديقة السبيل

أم جميل وأبو جميل ينزلان معاً إلى حديقة السبيل،
يمرّان أمام اللوحة المتأرجحة فوق الصيدلية المغلقة، أم جميل
تعلّق:

- منذ ثلاثة أشهر، في أول نزولنا في الشقة الجديدة،
هنا المطلّة على حديقة السبيل، رأينا اللوحة وهي عالقة
بمسمار واحد، يؤرجحها الهواء، حتى الآن لم تقع،
والصيدلية مغلقة.

أبو جميل يتكلم:

- لعلها تنتظر رصاصة طائشة.

عند باب الحديقة يعترضهما عجوز يمدّ لهما يده
اليسرى بالسؤال، يده اليمنى مقطوعة عند الرسغ، موضع
القطع ظاهر، حيث يظهر الجلد المتجدد، وهو يحسر
القميص عن يده، أم جميل تفتح حقيبتها، تضع في يده

اليسرى مبلغاً ما. في مدخل الحديقة، وعلى الرصيف، تقعد صبية دون الثلاثين، تفرش منديلاً تناثرت فيه بضعة ليرات معدنية، وفي حضنها وليد نائم لا يزيد عمره عن بضعة أشهر، وثديها مدلوق من فتحة ثوبها.

أم جميل تناولها ورقة نقدية، تضعها بين طيات ثوب الوليد، بعد أن يتجاوزها، تقول أم جميل لزوجها:
- بالله عليك قل لي: ماذا تجد أنت وصديقك أبو وائل في حديقة السبيل، لا بد كل يوم من النزول إليها؟
- لا نجد غير الشيوخ والعجائز من مثلنا.

- وما هذه الصداقة التي نشأت فجأة بينك وبين أبو وائل، كأنك تعرفه من مئة سنة، ولم يمض على مجاورتنا له في العمارة غير ثلاثة أشهر؟

- أنا عجوز، وهو عجوز مثلي، والرجل طيب، وأنا انقطع عني كل أصدقائي، وأنا انقطعت عنهم، تكلمنا من قبل على هذا الموضوع، لا أريد تكرار الحديث عنه، ولا تتسي، أنت أيضاً، بسرعة كبيرة أصبحت أم وائل كأنها صديقتك من ألف سنة، لا مئة، وتذكري، ظروف الحرب التي نعيشها، أين سأذهب؟ حديقة السبيل هي الأقرب إلينا. وقييل وصولهما إلى البركة ترى على الطرف الأيمن بائع دمي وألعاب للأطفال، فرش بها الأرض، وعلى الطرف

الأيسر ترى أكثر من عشر أراكيل كرسطالية فاخرة
وأخرى معدنية متألقة وإلى جانبها منضدة صفت عليها علب
المعسل بأنواعه المختلفة، وثمة شاب أمام موقد فيه جمرات
من الفحم حمراء تشع باللهب.

أم جميل تتأمل المشهد مدهوشة، والشاب يلح عليهما
بالنداء:

- أركيلة خانم، أركيلة أستاذ، أطيّب معسلّ بالتفاح
والكرز.

عندما يصبحان أمام البركة تضع يدها على صدرها،
وتهتف:

- يا إلهي، هذه هي البركة؟

أبو جميل يقول:

- نعم هذه هي البركة، ماذا حصل؟

- كم كانت جميلة، رقيقة المياه شفافة، أرضها
مفروشة بالسيراميك الأزرق الفاتح، الماء فيها بلون السماء،
وفي الوسط نافورة صغيرة، يتقاذف الماء منها ويسقط مثل
المطر الخفيف، كانت حافاتها واطئة وهي من حجر أصفر
أملس ناعم كالمخمل، لا أرى الآن سوى الحفائر في أرضها،
وحافاتها مكسرة، وفي وسطها أنابيب رقيقة وأخرى تخينة
كأنها أوردة وشرايين أو أمعاء مدلوقة.

أبو جميل يعلق:

- أنا رأيتها هكذا من أربعة أشهر، من أول بحثي عن شقة لنا في هذه المنطقة، دخلت إليها، فرأيتها على هذا الوضع، الإدارة تجري فيها تصليحات، قبل عدة سنوات جهزت بمضخات وصمامات ونوافير تعمل بمصاحبة الموسيقى، لكن تعطلت، هذه الآن تصليحات.

- وهل تسمي هذه تصليحات؟ ومنذ أربعة أشهر ما انتهت التصليحات؟ وأين العمال؟

- والله أنا يا أم جميل ما تنبعت إلى هذا كله، لا أنا ولا أبو وائل، قلنا لاشك هناك خطة للتصليح، ولا بد سوف تُتَمَدَّ اليوم أو غداً.

- هذا تدميريا أبو جميل، لا تصليح، وفي ظني هو بفعل قذيفة، أو قذائف.

أبو جميل يشير إلى أحد المقاعد، ويتكلم:

- أنا أقعد هناك دائماً على هذا المقعد فوق الهضبة، وهو يشرف على حديقة السبيل، وأرى أمامي الإيوان بأعمدته الرخامية، والأولاد يلعبون داخله، وكل ولد ينادي ويصيح، ويتردد صدى أصواتهم، هو أجمل مقعد في الحديقة، ومن مكاني فيه أرى شرفة بيتنا، ولكن يقعد الآن في مقعدي المؤلف شاب مع خطيبته.

أم جميل تشير إلى مقعد آخر، فيتجهان إليه، ويقعدان عليه.

أبو جميل يشير إلى لوحة معدنية صغيرة، مثبتة بوساطة قضيب معدني فوق العشب، ويقول لأم جميل:
- اقرئي المكتوب على اللوحة.
- "ممنوع الجلوس فوق العشب".
- ما ملاحظتك؟

— ملاحظتي؟ لا أرى العشب، أرى القش الأصفر اليابس، وأرى الرجال والنساء جالسين فوقه.
- لم تلاحظي الخطأ في التعبير، الصواب: ممنوع القعود فوق العشب، فعل جلس يستعمل مع مَنْ هو متكئ، أما قعد، فيستعمل مع من هو واقف، فيقال قعد.
أم جميل تضحك، وتعلق:

- أضحككتني، وإن كنت غير مشتهية الضحك، نسيت خطأ البشر بقعودهم وجلوسهم ومشيههم فوق العشب، ولم تلحظ غير هذا الخطأ اللغوي، وما هو في الحقيقة خطأ، وألف مرة قلت لك: دلالات الألفاظ تتطور بالاستعمال، وعلى كل حال، هم لا يجلسون على العشب، هم يجلسون على قش أصفر يابس، أنا أعرف، أنت تريد استفزازي والتفاحص علي.

- لا والله، يا أم جميل، أردت مداعبتك وتسليتك، عن
أي شيء سنتحدث؟ هل أحكي لك عن نابليون بونابرت
وكلبير وسليمان الحلبي؟
- لأ، أرجوك، مللت حديثك عنهم.

وتصمت ثم تضيف:

- هل تعرف، يا أبو جميل، ربما من عشر سنين لم أزر
الحديقة، أو أكثر، قبل أزمة الحرب التي نمرّ بها، أي قبل
عام 2012 ومر ثلاثة أشهر، ونحن نسكن بجوار الحديقة،
والحديقة أمامنا، وما نزلت إليها.

- وكيف رأيتهما؟

- تغيرت.

- للأفضل؟

- لأ، لأ، ما لاحظت من كلامي؟ واضح.

- ولكن أنا لا أرى أي شيء من السوء فيها؟ المقاعد
زادت، والأشجار هي الأشجار.

- يا إلهي، كانت حديقة السبيل غير ما هي عليه اليوم،
ما توقعت رؤيتها على هذا الشكل، كانت كبيرة، وأحس
باتساعها ورحابتها، اليوم أحس بها صغيرة، صغيرة وخانقة،
وما هذا الزحام؟ كأننا في يوم عطلة أو عيد، أو كأن
المدينة ضربها زلزال فنزل الناس كلهم إلى الحديقة.

ولد دون العاشرة يقف أمام أم جميل، ينظر إليها، عيناه جامدتان لا تطرفان، طرف فمه مائل، يشير إلى أم جميل بيديه، تدرك أنه أبكم، تفتح حقيبة يدها، تناوله قطعة سكر، يتناولها بأصابع راعشة، ثم يركض.

أم جميل تتكلم:

– من الغريب انتشار الأراكيل، حتى بين الشبان والصبايا، فور دخولي الحديقة شممت رائحة المعسل، الإنسان يأتي إلى الحديقة ليملأ رثتيه بالهواء النقي، لا بدخان الأركيلة، ولا حظ معي تسريجات شعر الشباب، حقيقة شيء مقرف، لا ذوق ولا جمال، الواحد منهم طول وجهه ثلاثة أشبار، ويرفع شعره إلى فوق شبرين.

أبو جميل يتكلم:

- والله أنا شاهدت هذا، ولكن ما أثار اهتمامي، وما أحسست بشيء، على كل حال، كل عصر له زيه في الثياب وتسريحة الشعر، وهذه كلها أمور شكلية وتتغير.

أم جميل تعلق:

– وفي الأرض وعلى المرج وتحت المقاعد زجاجات الماء الفارغة والمناديل الورقية وأعقاب السكائر وعلب السكائر والأوراق، ما هذا؟ لا نظافة ولا عناية؟ وأكثر ما أزعجني تجوال باعة القهوة في أرجاء الحديقة؟ لا أعرف هل تُشرب هذه القهوة؟

وتصمت، ثم تسأل:

- هل تذكر كيف كانت حديقة السبيل؟ أنا أذكر
يوم اصطحبني والدي معه إلى حلب، وكنت في العاشرة،
أخذني إلى الطبيب، وبعدها جاء بي إلى حديقة السبيل،
كان هناك في الطرف الشرقي مهجع حجري جميل للغزلان
أبو جميل يقاطعها، يعلّق مماًزحاً:

- ما شاء الله، زوجتي مدرسة اللغة العربية ولا تعرف
اسم بيت الغزلان.

- أرجوك أبو جميل، أنت كلما رأيتني متوترة طاب لك
المزاح، أعرف، هو كِناس، ولكن سأقول حظيرة، مهجع،
بيت، سأقول قصر الغزلان، هل يعجبك هذا؟

- هذا من حقك، فأنت مدرسة اللغة العربية، ولكن
المعاجم لا تسمح لك ولا مجمع اللغة العربية.

- مرة ثانية، أنت جعلتني أضحك، وأنا غير مشتتة
الضحك، أنا أسألك: هل نستعمل اللغة كما يقول المعجم؟
وأي معجم؟ عد إلى لسان العرب، ستجد بعض الكلمات لها
عشرات المعاني، بين حقيقة ومجاز ومعنى قديم ومعنى
متطور، نحن نستعمل الألفاظ بمعانيها المتداولة، لا بمعانيها
المعجمية، ونستعمل الألفاظ وفق حالتها النفسية ووفق
انفعالنا، وفق الموقف ووفق المقام، بل وفق المعنى الذي نريد،

ونحملها مشاعرنا وعواطفنا وانفعالاتنا، حتى معناها يختلف
وفق النبرة ووفق السياق.

أبو جميل يقاطعها:

- شكراً يا أم جميل، شكراً، أنت أعطيتني درساً في
اللغة، وأثبت لي حقيقة عن جدارة: أنت مدرسة اللغة العربية.

- أنت ورطتني، وأنا اندفعت

وتصمت، ثم تتكلم كمن يتابع حديثاً انقطع:

- كان هناك قصر للغزلان، هل يعجبك هذا؟ مبني
بالحجر الأصفر، على شكل دائري، ومحاط بسور من
الدرابزين الحديدي المزخرف، وكان فيه أربع غزالات أو
خمس، جننت لما رأيتها، وكان في الطرف المقابل قفص
حديدي كبير للطواويس.

وتصمت، تلتفت إلى زوجها، تسأل ممازحة:

- وهل تريد أي اسم آخر غير القفص؟

أبو جميل يفكر، ثم يعلق:

- هو قفص كبير، أنا سأسميه قلعة.

أم جميل تتكلم:

- وقفت مع أبي أمام قصر الطواويس، ننتظر من
الطاووس فتح ذيله، ولما فتحه أدهشني المنظر، كم أحبيته،

ولا أنسى، أحد الأشخاص كان يريد نتف ريشة من ذيله،
ولا أعرف، بعد ذلك وجدت في بيتنا بعضين ثلاث ريشات
لطاووس، حزنت، سألت أبي: هل نتفتها أنت من ذيل
الطاووس بحلب؟ قال: لأ، يا بنتي، اشتريتها من بائع،
ولكن، بصراحة، لم يعجبني صوت الطاووس، أنت ابن
حلب، تذكر هذا أفضل مني.

أبو جميل يتكلم:

- أنا كنت أحب الطاحونة الهوائية في مدخل السبيل،
وهي مركبة على بئر لسحب الماء منه، وبعدها قرأت عن
حديقة السبيل، في إحدى الموسوعات، الحديقة يا أم جميل
ترجع إلى عام 1896 أنشئت في الأصل خارج مدينة حلب في
عهد الوالي العثماني رائف باشا، ثم جرى توسيعها في عهد
محافظ حلب الأمير مصطفى الشهابي، وتم افتتاحها في
شهر شباط عام 1946 مع استقلال سورية.

أم جميل تتكلم:

- أنت كل همك التاريخ، ذاكرتك تاريخية، أنا
ذاكرتي جغرافية، أنا أتذكر دائماً الأماكن التي زرتها،
وخاصة في صغري، لا أنسى مثلاً الغزالات، ولا أتوقع اليوم
وجود غزالات، وربما خرب مهجعها كناسها قصرها، والله
ما عدت أعرف أحكي.

أبو جميل يضحك، ويعلق:

- قصر الغزالات موجود، وهو هناك، أصبح الآن
حظيرة تُرَبَّى الآن فيها الأرناب، وقلعة الطواويس موجودة،
ولكن هي الآن مجرد قفص يعيش فيه قرد، انظري، الناس
يتجمعون حوله، هل نذهب للفرجة عليه؟

أم جميل تضحك ساخرة:

- بعد طائر الطاووس تريدني أتفرج على القرد؟

- وهناك في الإيوان المسقوف، حيث يلعب الآن الأولاد
ويتصايحون، كانت الفرقة الموسيقية تأتي صباح يومي
الجمعة والأحد لتعزف موسيقا يتردد صداها في أرجاء
الحديقة، وما كان يسمح بدخول الباعة ولا المتسولين ولا
العربات.

أم جميل تعلق:

- هذا اسمه، فيما أظن، يا أبو جميل: الشاذروان، لا
الإيوان، الإيوان هو غرفة في صدر الدار مسقوفة ولها ثلاثة
جدران فقط، تكون مفتوحة على فناء الدار، ويقع على
كل جانب منها غرفة، هذا هو الإيوان، وكما نسميه نحن:
الليوان، أما الشاذروان فهو بناء مدور مفتوح من أطرافه
كلها ومحاط بأعمدة تحمل السقف.

أبو جميل يعلق:

- أحسنت، يا أم جميل، الآن أثبت مرة ثانية وعن جدارة أنك مدرسة اللغة العربية.

- للأسف، كلامنا النظري على اللغة، أفسد علينا استمتاعنا بالواقع الحقيقي الذي نعيشه.

- لا يا أم جميل، لا، لا تقولي هذا، اللغة زادت من متعتنا وأكسبتنا معرفة، اللغة تمنح المدركات قوة الحضور، وتزيد من الوعي، وترفع درجة التوتر والإحساس.

أم جميل تسرح في الكلام:

- على كل حال أنا لا أنسى يوم زرنا حديقة السبيل أنا وأنت أيام الخطبة، ما كان أحلاها من أيام وما أحلاها في تلك الأيام من حديقة، ثم زرناها في الأيام الأولى من زواجنا، وأنا لا أنسى قعودنا على حافة البركة، وجاء المصور والتقط لنا عدة صور، لا أنسى، كانت حافة البركة كما قلت لك ناعمة كالمخمل، أحس الآن بالأشجار شاخت، ومن باب الحديقة حتى مقعدنا هنا، ما رأيت قطعة مرج أخضر، العشب كله أصفر يابس، ونحن في نيسان، لا في الصيف، ولا رأيت أي مساحة ولو صغيرة من الورود أو الزنايق أو الأزهار، نحن الآن في موسم الورد، كل ما رأيته أكياس النايلون السوداء والبيضاء، وعلب السكائر الفارغة

والشباب يفترشون العشب الأصفر ويلعبون بورق الشدة، وفي أياديهم خراطيم الأراكيل.

أبو جميل يعلق:

- شعبنا متخلف، لا يقدر الحديقة ولا الورد، يدوس فوق العشب ويقعد عليه.

- لا، شعبنا غير متخلف، مؤسف هذا الإهمال، الإدارة تتحمل المسؤولية، لا تتهم شعبنا يا أبو جميل، الإدارة هي المسؤولة، لو وضعت سلالات للمهملات، لو منعت الباعة من الدخول إلى الحديقة، أين الحراس، أين عمال النظافة؟ الحديقة بحاجة إلى مهندسين زراعيين يعنون بالأشجار والعشب والزهور، بحاجة إلى حدائقيين مختصين، أين الإدارة؟ أرجوك، لا تتهم شعبنا، والله لو توافرت للحديقة إدارة حقيقية صادقة مخلصة تحب العمل وتتابع الأمور، لرأيت الحديقة مثل الجنة.

أبو جميل يرد:

- هذا كله غير صحيح، شعبنا هو المسؤول، سأحكي لك، لتقتعي، مررت مصادفة أنا وأبو وائل أمام قفص القرد، أكثر الذين تجمعوا أمامه للفرجة عليه كانوا من الصبايا والنساء، وأصوات الضحك تعلو، احزري ما هو سبب ضحكهم؟

- كان القرد يقلد.

- القرد كان كان كان...ماذا أقول لك: كان يلعب

بعضوه.

أم جميل ترد بحزم:

- مع ذلك، أنا أحمل الإدارة المسؤولة، لو وضعوا في القفص طائر الطاووس؟ أما كان أجمل؟ أو على الأقل: لو صنعوا قفصين ووضعوا في هذا القرد وفي الآخر طائر الطاووس.

- أنا متأكد، لو وضعوا قفصين في الأول الطاووس وفي الثاني القرد، لرأيت أكثر الناس متجمعين أمام القرد، ولما وجدت أمام الطاووس إلا القليل.

- هذا طبيعي يا أبو جميل.

- كيف هو طبيعي؟ هذا فساد في الذوق.

- لآ، يا أبو جميل، كل الناس يمكنهم الضحك،

لكن لا يستطيع تأمل الجمال إلا قليل منهم.

- غير معقول؟

- الطاووس جميل، والجمال يحتاج إلى تأمل وطول تفكير وهدوء، يحتاج إعمال العقل، وهو عملية فردية، أما القرد فهو مضحك، والضحك عملية بسيطة سريعة يستجيب

لها الكبير والصغير، ولا يحتاج الضحك إلى تأمل وتفكير،
والضحك بطبيعته عمل جماعي، صدقني النكته نفسها إذا
سمعها فرد وحده لا يضحك بقدر ما يضحك إذا ما سمعها
مع جماعة ورأى الجماعة كلها تضحك.
أبو جميل يتكلم بلهجة مختلفة:

- دعينا من هذا كله، سأنادي البائع، لنشرب فنجان
قهوة.

- لا والله، لا أذوقها، رأيت بائع القهوة في مدخل
الحديقة، ورأيت أصابعه المتسخة وأظفاره الطويلة، يا إلهي،
كيف يشرب الناس مثل هذه القهوة، حتى رائحتها زكمت
أنفي، أنا كرهت كل شيء في الحديقة.
أبو جميل يتكلم:

- والله، كنت أمر بكل هذا وأراه، ولكن ما فكرت
فيه.

- وهذا هو الفرق بين رأى وأبصر، أو هو الفرق في
الحقيقة بين العيش في الواقع، والوعي به، كثير من الناس
يعيشون في الفقر وفي الجهل وفي الظلم، ولكنهم لا يحسون
بالفقر ولا بالجهل ولا بالظلم، وما أحوجنا إلى الوعي.
وترسل زفرة، ثم تتكلم:

- وياليت الحديقة وحدها تغيّرت نحو الأسوأ، كل شيء يسير نحو الأسوأ، الدنيا كلها تغيرت، إذا كانت حديقة السبيل وهي أجمل مكان في حلب، صارت إلى هذه الحال، فكيف حلب؟

- يا أم جميل، الدنيا بخير، تفاءلي.

ويمر ولد في العاشرة حافي القدمين متسخ الثياب يحمل مجمرة معدنية فيها قطع فحم صغيرة تتوهج، يمضي ليوزعها على الأراكيل المنتشرة في أرجاء الحديقة.

أم جميل تتكلم:

- انظر، انظر، أي تفاؤل تدعوني إليه؟ هذا الطفل مكانه في المدرسة، يلعب ويتعلم ويسمع الموسيقى، ترى هل يعرف فيروز؟ هل يحفظ النشيد الوطني؟ هل يذهب إلى المسجد؟ أي مستقبل ينتظره؟ أي مستقبل ينتظر البلاد كلها؟

- يا أم جميل، نحن جئنا إلى الحديقة لنتسلى، ولنستريح، لا لنضع هموم الدنيا كلها فوق رأسنا، قومي حتى نرجع إلى البيت.

أم جميل تنظر في ساعة يدها، تعلق:

- الحقيقة، ضاقت بي روعي، فقلت نذهب إلى حديقة السبيل لنستريح، ما توقعت رؤية هذه المشاهد المزعجة، هذه ما هي حديقة السبيل التي كنت أعرفها أيام زمان.

يمر صمت ثقيل، يتكلم أبو جميل:

- شقتنا خمس غرف، والشرفة مظلة على حديقة السبيل، وعلى حلب كلها، وضاقت نفسك؟ أنت عندك شيء أزعجك، ما هي مسألة حديقة ونظافة وتسريحة شعر، أنت عندك موضوع آخر، احكي، صارحيني.

- يا أبو جميل، نحن في حالة حرب منذ أربع سنوات، وأرى الناس في المقاهي والمطاعم والأسواق وعند باعة الذهب وفي المحلات التجارية، كل همهم أحدث الأزياء وآخر المسلسلات ومسابقات الغناء والأراب أيدول، طموح كل شاب هو الغناء والظهور في التلفزيون، كأنه لا شيء يجري من حولهم؟.

أبو جميل يتكلم:

- يا أم جميل، الحياة أقوى من الموت.

- لأ، هذا غير صحيح، هذه ما هي الحياة.

تنهض مستاءة، ينهض في إثرها، يرسل زفرة، يتكلم:

- أنا مثلك، أسمع، وأرى، وأحس، وأعيش، ولكن

ماذا نفعل؟.

- كأننا قبل يوم القيامة، كأن الساعة اقتربت، كأن الناس لا يعرفون الله، كأنهم ينكرون وجوده، فهم يفعلون كل ما يحلو لهم، ماذا أقول؟.

أبو جميل يتكلم:

- لآ، لا أحد ينكر وجود الله، كلهم يؤمنون بالله، وكلهم يعرفونه، ولكنهم ينسونه، تذكري قوله تعالى: "نسوا الله فأنساهم أنفسهم".

- وماذا سنفعل؟

- لن نفعل أي شيء، نرجع إلى البيت، نطمئن عليه، قبل ما تسقط فوقه قذيفة، الحمد لله، لقد وفقنا بشراء هذه الشقة المطلة على حديقة السبيل، لم يمض على شرائنا لها ثلاثة أشهر، حتى تضاعف ثمنها، الآن بثمانية ملايين لا نستطيع شراء مثلها.

أم جميل تعلق:

- هل تعرف يا أبو جميل، كان علينا شراء شقتين، واحدة بغرفتين، لي ولك، وأخرى لولدنا جميل، بأربع غرف. أبو جميل يضحك، ويتكلم:

- هل نسيت يا أم جميل، نحن طول عمرنا، ما استطعنا شراء شقة، أمضينا حياتنا في الانتقال من دار بالأجرة إلى

دار بالأجرة، أنا تقاعدت، وأنت على وشك التقاعد، راتبي وراتبك للأكل والشرب والدواء ولا أكثر، لكن الحمد لله استطعنا تربية ولدنا جميل، والله وفقه، وتخصص بالجراحة العامة، ولولا عمله بعد التخصص خمس سنين في إسبانيا، ما كنا استطعنا شراء هذه الشقة.

أم جميل تعلق:

- أنا قصدي يا أبو جميل، لو أننا اشترينا بالملايين الأربعة التي أرسلها هو إلينا، شقة صغيرة بمليون، وشقة أكبر بثلاثة ملايين له، مثلما قلت، والله لولا جميل، الله يحميه، ما قدرنا على شراء غرفة.

أبو جميل يضحك:

- يا أم جميل، لا يوجد شقة بمليون، ولا في آخر منطقة في شرق حلب.

- أنا أفكر، هل يمكن أن نفرح بجميل، ونزوجه، وتعيش زوجته معنا في نفس الشقة؟

أبو جميل:

- جميل لن يتزوج فور وصوله، سيعمل سنتين أو ثلاث سنوات، اختصاصه مطلوب، وكل المستشفيات تنتظره، في سنتين، يشتري لنا شقة صغيرة، ونترك له هذه الشقة.

أم جميل ترسل زفرة، وتضيف:

- كلما كلمته بالهاتف يقول لي: عودتي اقتربت، هل يخفي عني موعد عودته.

أبو جميل يتكلم:

- سيرجع نهاية هذا العام، بعد شهرين، في مطلع عام 2017.

أم جميل تلقي نظرة شاملة على حديقة السبيل، ثم تتكلم:

- في الحقيقة، الإطلالة على حديقة السبيل من الشرفة في شقتنا، ورؤيتها من بعيد أجمل من الدخول إليها، والتعرف عليها من قرب.

- هذا هو قانون المعرفة، خذي التاريخ مثلاً، إذا نظرنا إليه من بعيد نظرة شاملة، رأينا التطور العلمي والتقدم الحضاري، وإذا اقتربنا منه أكثر، وقرأنا التفاصيل رأينا كل ما هو غير سار، أنا مللت، أريد العودة إلى البيت، مثلما قلت: الإطلالة من الشرفة على حديقة السبيل أجمل.

أبو جميل يمسك بيد أم جميل، ينهضان معاً، ويسيران متجهين نحو البيت.

أم جميل تتكلم:

- تعال لنخرج من الباب الشرقي من الحديقة ، أريد
الفرجة على رأس السبع والماء ينصب من فمه ، عندما زرت
الحديقة وأنا طفلة مع أبي كما حدثتك ، حملني أبي ،
ووضع فمي تحت فم السبع وقال لي: اشربي ، كنت خائفة ،
لم أشرب.

أمام السبع تقف أم جميل ذاهلة ، تعلق:

- يا إلهي ، ماء آسن ، روائح كريهة ، العفن الأسود
والطحالب الخضراء تملو وجه السبع ، الديدان تملأ فمه ، ما
هذا؟ عجل بنا ، يا أبو جميل ، عجل.
تجذب يد زوجها ، وتعلق:

- لبيتنا خرجنا من الباب الرئيسي ، المرور تحت اللوحة
المتأرجحة أمام الصيدلية المغلقة ، خير من المرور أمام رأس
السبع المتعفن.

- وأنا لا أعرف متى ستسقط تلك اللوحة المشؤومة.

- تحتاج إلى نفخة ريح.

- أو إلى رصاصة طائشة ، كما قلت أول دخولنا إلى
حديقة السبيل.

ويصك سمع كل من في حديقة السبيل فحيح يملأ
السماء ، ويدوي انفجار.

ويقف الناس في حديقة السبيل ذاهلين، يحدقون
بأبصارهم نحو الجهة الشمالية، صوب دوار الدلة، حيث
يتصاعد دخان كثيف تتراءى في وسطه ألسنة اللهب. أم
جميل وأبو جميل يقفان مبهوتين، الحريق وألسنة اللهب
تتصاعد، وصوت سيارات الإطفاء يملأ الفضاء.

ويصيح أبو جميل:

- يا إلهي، هذه شقتنا تحترق.

حبة دُقلة واحدة

خرج من غرفته يجرح حقيبتة على البساط الأحمر في
ممر الطابق الخامس، المصعد كان بانتظاره، العامل
العجوز جرَّ الباب الشبكي إلى جانب، حياه:

- بونجور مسيو.

أغلق العامل العجوز الباب الشبكي بجرّة من يده، ثم
أدار القاطع الكهربائي نحو اليمين، وبدأ المصعد بالهبوط.

- كم عمر هذا المصعد؟

- لا أعرف، منذ بناء فندق سفير، أكثر من مئة
سنة، أنا ورثت العمل عليه من أبي.

وصل المصعد إلى الدور الأرضي، أدار العامل العجوز
بيد خبيرة القاطع بهدوء نحو اليسار، توقف المصعد.

توجه إلى الاستقبال، أودع حقيبتة، وهو يقول للعامل:

- سيأتي المرافق مع السائق لأخذها.

ويعلق عامل الاستقبال وهو يناوله جواز السفر:

- كنا نتمنى لو كانت إقامتك أطول.

- في زيارة قادمة.

- نرجو أن تكون قريبة.

ناوله قطعة نقد ورقية، وهو يقول:

- أنا في المطعم.

- صحة.

في المطعم المخصص للإفطار، اختار من المائدة المفتوحة إفطاره، كعادته في بيته كل صباح، أخذ يبحث بين الموائد المكتظة بالنزلاء عن مائدة فردية يقعد إليها، لن يجد مائدة فردية، الموائد كلها لأربعة أشخاص أو لستة، قليلة هي الموائد التي لاثنين، وقعت عيناه في عمق المطعم على مائدة صغيرة لاثنين إلى جوار النافذة الزجاجية الكبيرة، المشرفة على الشارع المطل على البحر، اتخذ مكانه وراء المائدة، أمامه على المائدة مزهرية، فيها زهرات توليب، حمراء قانية وبيضاء ناصعة، النوارس تحط على السور الحجري العريض، وتلتقط فتات الخبز، والسماء تسبح فيها غمامات خريفية، ينظر إلى الكرسي الشاغر أمامه، يتمنى ألا يقعد فيه أحد، يحس بارتباك شديد إذا رآه أحد وهو يتناول الطعام.

بالمقط الصغير الخاص حمل من الصحن الصغير بضع
قطع صغيرة من الثلج، وضعها في كأس الحليب، غير
المحلّى رفع الكأس إلى فمه، أحس باقتراب شخص منه،
نفحه عطر البوازون، وصوت أنثوي ناعم يسأل:

- هل تسمح لي بمشاركتك المائدة؟

رفع وجهه إليها، أعاد الكأس إلى المائدة. هي نفسها،
سيدة الليلة الماضية. أمس ليلاً كانت إلى المائدة أمامه مع
رجل مقابل مائدته، كان وجهها إليه، التقت أنظارهما
مرتين، رأى طيف ابتسامة، وهي تغادر حيثُ بإشارة خفيفة
من أصابعها. ليلة أمس كان شعرها الأسود الناعم القصير
مرسلاً، هو اليوم أجعد، نديان، وليلة أمس كانت في
قميص زهري. اليوم هي في قميص خمري ضيق مفتوح عن
صدر ممتلئ.

أجابها وهو يبتسم:

- تفضلي، بكل سرور.

وضعت صحنها على المائدة، واتخذت موضعها، قبالتة.
سيدة في الخامسة والثلاثين، موفورة الصحة، أقرب إلى
البدانة. حاول ألا ينظر إليها. رآها مرتين في البهو، غمره
عطرها، تنزل في الطابق الخامس الذي ينزل فيه، لعل
غرفتها قريبة من غرفته، ولمحها مرة في مدخل الفندق،

ومرة أخرى في سوبر ماركت صغير بجوار الفندق حيث
كان يشتري زجاجة عطر. تذكر الآن.

– اعذرني، لم أجد مائدة شاغرة، وأنا مستعجلة،
طائرتي ستقلع عند الرابعة، وعليّ النزول إلى السوق لشراء
هدايا.

نظر في ساعة يده، وابتسم، الساعة الآن التاسعة
والنصف، ثمة متسع من الوقت. أكد قائلاً:

– أهلاً بك، لا تشعرني بالحرج، أنا مثلك بحثت عن
مائدة فردية، فلم أجد.

– طبعاً في مثل هذه الفنادق لن تجد مائدة فردية ولا أي
سرير فردي، لا بد من مائدة لاثين وسرير لاثين.

وتمد يدها إليه:

– كوثر، صحفية من تونس العاصمة.

يأخذ أطراف أناملها، يضافحها برفق:

– بشير، كاتب، من حلب، سورية.

– أحب حلب، زرتها مرة واحدة، في رحلة جامعية، لا
أنسى الجامع الأموي، والقلعة، وحديقة جميلة جداً، لا تقل
لي اسمها، أنا سوف أتذكر، تذكرت: حديقة السبيل،
كان هذا قبل عشرين سنة.

- ذاكرتك ممتازة، بيتي في ظل مئذنة الجامع الأموي.
- حلب لا تنسى.
- تسأل بلهفة:
- شاعر؟
- لا، قاص.
- رأيتك ليلة أمس مع مجموعة من الأدباء الجزائريين، كنت سأنهض لأنضم إليكم، لكن كان بين المجموعة شخص أحبه جداً، وشخص لا أحبه أبداً.
- تصب الحليب في الكأس إلى نصفه، ثم تملأ الكأس إلى الحافة بالقهوة، وهي تتكلم:
- الذي لا أحبه، ولن أذكر لك اسمه، بصراحة هو طليقي، انفصلنا منذ ستة أشهر، أنا أمي جزائرية، وهو ابن خالتي.
- وترفع قطعة الكرواسان إلى فمها، تقضم لقمة، وتتابع الكلام:
- والرجل الذي كان معي على المائدة هو المحامي، جئت لقضايا تتعلق بالميراث، توفيت أمي، وأنا وحيدتها، أخوالي وخالاتي والأبناء سيشاركونني في الميراث.

- البقية في حياتك.
- تعيش، توفيت أمي منذ سنة، نسينا الحزن، بسبب الاختلاف على الميراث، وبصراحة هذا الاختلاف هو سبب الانفصال، انس الموضوع كله، متى انتهت سهرتكم؟ أنا ذهبت في زيارة إلى والدتي المحامي، أمه صديقة أمي، رجعت بعد أقل من ساعة، ما وجدتمكم.
- دعاني بوجاد إلى بيته دعوة خاصة، سهرنا في بيته. تشهق قائلة:
- بوجاد؟ يا إلهي، ليتني كنت معكم، هذا هو الرجل الذي أحبه.
- أوه، صدقت، رجل رائع جداً، طوال إقامتي ما تركني لحظة، يريد أن يطوف بي كل أرجاء العاصمة. تقاطعه:
- هل زرتهم نصب الشهيد؟
- لا.
- وينظر في ساعة يده، وهو يقول:
- سيأتي في الحادية عشرة والنصف.
- اتصل به، اعتذر إليه، أنا سأخذك في جولة.
- ترفع فنجان القهوة بالحليب إلى فمها، تأخذ رشفة، تعلق:

- أوه، حارٌّ جدًّا، حرقت لساني.
صحنها ممتلئ بقطعة كرواسان، ودلّة قهوة، ودلّة حليب، وشرائح خبز محمص، وشرائح جبن أصفر، وشرائح رقيقة من لحم بارد، وعلبة بلاستيك صغيرة تشف عن عسل أسود، وبيضة مسلوقة، وحبّة فراولة واحدة. صحنه فيه كأس حليب، وبضع دقالات، وتفاحة صفراء.
يشير إلى الصحن الكريستالي الشفاف المملوء بقطع الثلج، يسألها:
- أضع لك في كأسك قطعة ثلج؟
تنظر إلى كأسه، رقيق شفاف، تطفو على سطح الحليب قطع ثلج صغيرة. تعلق مازحة:
- حليب مثلج في الصباح، رائع، لا بأس، ضع في كأسك قطعة ثلج أرجوك، لعل كأسك تبرد قليلاً.
بالمقطف الصغير يحمل قطعة ثلج، ويضعها في كأسها، تعلق:
- كنت أتوقع أن تضع لي قطع الثلج من كأسك، لا من الصحن.
يحمل بالمعلقة قطرات من الحليب، وهو يسأل:
- هل تسمحين بوضع قطرات من حليب كأسك في كأسك.

ترد وهي تضحك:

- يسرني ذلك، هذا ما كنت أتمناه، ليتك تصب كل الحليب الذي في كأسك.
- لا، لا، كل الحليب لا، وأرجو أن تعلمي أنني لم أرشف من الكأس بعد أي رشفة.
- ليتك فعلت.
- ويرفع الكاس إلى فمه، يرشف منه بهدوء رشفة واحدة، يحس بنظراتها تقع على الكأس.
- أحب شرب الحليب مبرداً بالثلج وغير محلى بالسكر.
- عرفت، لك ذوق خاص، متميز، مختلف.
- تفتح بأناملها المطلية بالأحمر القاني علبة البلاستيك الصغيرة، وبالسكين تدهن شريحة الخبز المحمص بالاعسل. يتناول دُقلة واحدة، ينزع نواتها بأصابعه، يشطرها شطرين، يتناولها بهدوء. تشرع في تناول شرائح الجبن، وتشرب معها القهوة بالحليب، يتناول الدُقلات على مهل، تتابع تناول شرائح اللحم، يمسك التفاحة بالإبهام والسبابة، من خاصرتيها، يرفعها إلى فمه، يتكلم:
- اعذريني، هذه طريقتي في تناول التفاحة.

- عفوا، خذ راحتك، هذه حريرتك الشخصية.
- لا يطاوعني قلبي على غرس الشوكة والسكين في قلبها، أحب الإمساك بها بإصبعين، أشم رائحتها، أحس بلمسها الناعم، أقضمها بأسناني.
- تقاطعها معلقة:
- لك الحق كل الحق، للأسنان إحساسها الخاص، بها تبدأ المتعة، ويؤكد علماء النفس أن القبلة متطورة عن العضة.
- يتابع:
- ثم أتذوق عصارتها وهي تذوب في الفم، ولا أعرف كيف أمضغها.
- تصمت، تضع لقمة في فمها، ثم تتكلم:
- ذوقك في الطعام مترف، وصحي، لست مثلك، لا أستطيع، لا بد من أن أتناول الكرواسان، والقهوة بالحليب، وشريحة خبز محمص مع العسل، ولا بد من بيضة مسلوقة في الصباح، وأخيرا حبة فراولة، لا أستطيع مغالبة شهوتي للطعام.
- أنا أفضل القهوة بعد الإفطار.
- يعجبني ذوقك، لذلك تحافظ على رشاقتك، طول، ونحافة.

وتصمت ثم تضيف:

- حتى بدلتك بيضاء مثل الحليب، وهذا القميص
البنّي القاتم بلون الدُقّلات يليق بك جدا، يناسب الصباح
الرائق.

تصمت ثم تضيف:

- أنا أحب الألوان الفاتحة، لكن لا أعرف لماذا أنا
أختار لنفسني الألوان القاتمة.

- حتى عطرك: البوازون.

- وأنت عطرك هو اللافند، أنت تضع العطر المنعش
الذي يطرد الأمراض، ويُحيي الروح، وأنا أضع البوازون،
السم القاتل.

تصمت، تتناول البيضة المسلوقة بلقمتين اثنتين،

تتكلم:

- أظن أنني رأيتك أمس مساء في السوبر ماركت.

- نعم، كنت أشتري زجاجة عطر.

- لافند؟

- لأ، شانيل.

- يا إلهي، كم كنت أحب الشانيل في أيام حياتي مع
زوجي، ولكن بعد انفصالي عنه، عدت إلى البوازون، الذي
كنت أضعه قبل الزواج. لمن اشتريت الشانيل؟

وضعت شريحة الخبز من يدها ، وهمست:

- أه ، اعذرني للسؤال ، أنا آسفة ، الفضول دفعني إلى السؤال ، صدقني هو فضول عفوي ، هذه هي الطبيعة البشرية ، وربما بحكم عملي ، في الصحافة .
- لا تشعري بالحرج ، لو كنت في محلك لسألتك السؤال نفسه ، هي هدية لزوجتي .

- تحبها؟

- أعشقها .

- أهنتها ، أهنتها بك .

تمسح فمها بطرف المنديل ، تنهض ، وهي تتكلم:

- سأصعد إلى غرفتي لأحضر حافظة نقودي ثم نذهب معا إلى السوق القريب ، استمتع بإفطارك .

تهم بالنهوض ، ولكن تمد يدها إلى حبة الفراولة ، وتقول:

- اشتييت أن تقاسمني حبة الفراولة ، هل تقبل مني نصفها؟ لا شك أنك ستقبلها ، ولن أغرس في قلبها السكين ، تعلمت منك ، سأتناول أنا نصفها ، وأضع بيدي نصفها الثاني في فمك .

وقبل أن يجيب بكلمة ، تكون قد قضمت نصف الفراولة ، ووضعت نصفها الثاني في فمه . يمد يده إلى الدقلة الوحيدة المتبقية ، يقدمها إليها ، وهو يقول:

- ويسرني أنا أن أقدم لك الدُقلة كلها كاملة.
تتناولها من يده، متعمدة لمس يده، تضعها في منديل
ورقي، تلفها به، تودعها حقيبتها، وتعلق:

- يا إلهي، كم كان زوجي يحب أن يطعمني الدُقلة
بيده، بعد انفصالي عنه لم أذق الدُقلة، شكرا لمبادرتك،
سنتناولها معا في الجبل، عند نصب الشهيد، سأخذك أنا في
جولة.

ونهضت، تاركة وراءها شذى عطرها، ورائحة
جسمها. لكن، سمع صوتها، ورأى ظلها إلى جواره، وهي
تدنو منه وتهمس، وقد مالت عليه فرأى جدول العطر بين
النهدين، وهي تقول:

- كم رقم غرفتك؟

- 11

- أحب هذا الرقم، هل تعرف لماذا؟

- لا

- لأنه يعني زوجين اثنين، ولأن مجموعه يساوي اثنين.

وتضع يدها على كتفه وهي تقول:

- سأخذ حماما سريعاً ثم أوافيك أنا في غرفتك

وننزل معا، ما رأيك؟

التفت إليها، أجبها بهدوء وهو يهمس:
- لن أصدق إلى غرفتي، سأنتظرك في حديقة الفندق
الأمامية، قرب المدخل.

*

انتقل إلى الحديقة الأمامية للفندق، أشعل سيكارة
الكوبي، وقد اختار منضدة قريبة من مدخل الفندق. بعد
قليل أطلت عليه في بنطال أبيض ضيق مشدود على فخذيها،
وقميص زهري اللون مفتوح عند الصدر، وعلى عينيها نظارة
واقية من الشمس. غمرته روائح هي موسيقى من ألحان
الجسد والعطر الأنثوي والشامبو المتميز. لا ينسى استحمامه
بالشامبو أول نزوله بالفندق، لا يدري بماذا هو معطر؟
وكان فيه مواد تبعث الرغبة. رفع جواله، وبهدوء همس:

- سأتصل بالسائق ليوصلنا إلى حيث شئت.
أجابت، وهي تضع يدها على يده تريد منعه من
الاتصال بالجوال:

- لا تتصل، أرجوك، أفضل السير على الأقدام
والاستمتاع معك بالجولة في شمس الخريف، والشارع الذي
سنسير فيه مغلق أمام السيارات.

أخذ رشفة من فنجان القهوة، بطريقة مغرية، أشعرها
فيها أنه يقبل طرف الفنجان، ثم نهض:

- أنت مغرم بالقهوة؟
- جداً.
- ولماذا تحبها إلى هذه الدرجة؟
- لأن رائحتها عبقرة ولونها أسمر.
- حرمتك منها.
- بل عوضتني بدلاً منها.
- نقت دخان السيكار، ونهض، علقت:
- يا إلهي كم أحب رائحة السيكار.
- لكن السيدات عادة يفضلن السيكارا، ولا سيما السيكارا الرفيعة الناعمة الخفيفة.
- أنا على العكس، أحب السيكار لأنه طويل وجليظ، ولأن رائحته نفاذة وقوية.
- يقدم لها السيكار، وهو يقول:
- تفضلي.
- الآن، لا، لكن حين نرجع إلى الفندق، أحب أن تقدم لي في غرفتي سيكاراً جديداً، لأقضم رأسه، وأبله بلساني، ثم تشعله لي.
- أطفأ السيكار، وضعه في أنبوبة فضية خاصة، ونهض. وسارا معاً.

*

تكلمت بلطف:

- هذا الشارع مغلق أمام السيارات، خاص بالمشاة،
وهذا مبنى البريد.

- رائع، كأنه قصر من قصور الأندلس.

- نعم هو كذلك، وعلى جدرانه في الداخل مكتوب:
لا غالب إلا الله.

- سمعت مثل هذه الجملة من السائق، وقد شعر
بالضيق من الزحام فقال: الله غالب.

- نعم، نحن في تونس نُتَّهَمُ بالنزق والعصبية، لكن
الناس هنا أكثر منا نزقا، انس هذا، استمتع معي بجمال
الشارع.

- بالصبايا اللواتي فيه.

- ولماذا لا تقول لأنني معك فيه.

- لا أستطيع أن أغمض عيني، هن أمامي كثيرات.

تمسك يده، وتعلق:

- أغمض عينيك، حتى لا ترى سواي، وأنا سوف أسير

بك.

ثم تتأبط ذراعه، وتُشعره أنها هي التي تسير به. يحس

بضاضة صدرها، ودفئه، ويهمس:

- طوال عمري ما قادتني امرأة.
- ليكن اليوم مرة واحدة في العمر، ولسويغات.
- وأشارت إلى مجمع تجاري، ثم قالت:
- سندخل إلى المجمع التجاري.
- لا أحب المجمعات التجارية الكبيرة، أحس أنني أضيع فيها، أحب السوبرماركات الصغيرة.
- لن تضيع وأنت معي، بل ستحس بوجودك.
- تشد على ذراعه، تلتصق به أكثر، تسأل:
- هل رن جرس هاتفك في الغرفة ليلة أمس؟
- نعم.
- ولماذا لم ترد؟
- أعرف هذه المضايقات في مثل هذه الفنادق الفخمة.
- وهل تسمي اتصالي مضايقة؟
- أنت اتصلت؟
- نعم، هل كنت سترد لو أنك عرفت أنني أنا المتصلة؟
- ربما.
- بل بالتأكيد، لا تكابر، على كل حال خسرت ليلة متميزة كنت ستمضيها معي.
- يعلق:

- لا أحب التذكارات، ولا اللقاءات العابرة قبيل
الفراق.

تميل عليه وتهمس:

- هذا من حقك، ولكن أختلف معك، اللقاءات
العابرة هي الأجل، هي واحات في صحراء العمر.
- جلوسك إلى مائدتي لم يكن مصادفة إذا.
- بلى، أحسست بخروجك من غرفتك، وقدرت أنك
نازل إلى المطعم فقررت البحث عنك.
تقف قبالته، تدنو منه، تهمس:

- يمكنني تأجيل رحلتي إلى الأسبوع القادم، ونمضي
معا أسبوعاً كاملاً، أنا مراسلة صحيفة الشروق في تونس،
ومعدة برنامج صباح الخير، سأتصل بالمجلة وبالفضائية،
أسجل معك عدة مقابلات، ونمضي معا أسبوعاً، على نفقة
المجلة، ما رأيك؟

*

في المجمع التجاري، تشتري ثلاثة قمصان لأولادها،
وأحذية، تنتقل إلى قسم الألبسة النسائية، أمام باب المحل،
يقف يقول لها:

- سأنتظرك هنا على هذا المقعد، ليس من المناسب أن
أدخل معك.

تشد على يده، وهي تقول له:

- بل استدخل معي، اعتبر نفسك زوجي، أو عشيقتي،
لا بد أن آخذ رأيك.

تشير إلى قميص أبيض، فيه دوائر سود صغيرة، وإلى
آخر أبيض خالص البياض، تلتفت إليه تسأله:

- ما رأيك، أيهما أجمل؟

يعلق:

- كلاهما يليق بك.

تشد على يده، تلتصق به أكثر، وتقول له:

- أريد رأيك.

- الأبيض.

- لآ، الأبيض بالدوائر السود الصغيرة، هو الأجمل،

هل تعرف لماذا؟

- لا

- الأبيض هو أنت، والدوائر السود هي أنا.

ويناولها البائع قميصاً، وهو يضيف:

- هذا على مقاسك سيدتي.

ترده إليه بلطف، وهي تقول:

- بل أريده أصغر من مقاسي بنمرة واحدة.
البيائع يعلق:
- ولكنه، ضيق عند الصدر.
- هكذا أريده، هو أحلى.
ومن جناح الألبسة الرجالية تشير إلى ربطة عنق، وتقول
للبيائع:
- تلك، البيضاء بدوائر سود.
ثم تلتفت إليه، وتهمس:
- هي لك، أنا اخترتها، ولن أشاورك.
يعلق هامسا:
- أشكرك، ولكن لا يمكن أن أضع مثل هذه
الربطة وأنا في الستين.
تشد على يده وهي تقول:
- ستضعها فقط ليلة واحدة، هنا لأجلي، في الفندق،
ثم تحملها ذكرى، ولك الحق بعد ذلك في أن تضعها، أو لا،
ولكن أظنك ستضعها دائماً، هي ذكرى من الجزائر، على
الأقل.

*

الشارع يغص بالرائحين والغادين، شباب كثر يتناثرون على الأرصفة، المقاهي كثيرة، على الأرض بائع أمامه بسطة صغيرة، هي صندوق خشبي، فيها علب معدنية صغيرة، ودفاتر صغيرة جداً، تقف، تشتري علبة، ودفتراً، بكل رشاقة، تفتح العلبة، وتقص وريقة رقيقة جدا من الدفتر، شفاقة، وتلف بها كمية صغيرة جدا من التبغ، تلفها، فتصبح مثل حبة العدس، تمد يدها إليه وتقول:

- تفضل، ضعها تحت لسانك، تذوق طعم التبغ.
- لا، وأشكرك.

- ستدوقها حين نرجع إلى الفندق، من فمي.

تضعها في فمها، تحت لسانها، ويتابعان المضي.

أمام تمثال عبد القادر الجزائري يقفان، تتأبط ذراعه، وتلتصق به، وهي تعلق:

- كم نحب الشام نحن المغاربة؟ انظر إلى عبد القادر الجزائري: لولا ثيابه لقلت هو شامي.

- أراه يشهر سيفه وهو على ظهر جواده نحو فرنسا، كأن حرب التحرير ما انتهت.

- صدقت، ما نزال نعاني من مشكلة التعريب، بعض

المسؤولين ما تزال قلوبهم معلقة بفرنسا، ويتطلعون إلى فرنسا الجزائر، أو على الأقل يرفضون التعريب.

وتضغط على ذراعه ثم تضيف:
- لكن نحن قلوبنا معلقة بالشام.
وتهبط في شارع فرعي، تشير إلى سيارة أجرة، وتقول
للسائق:
- القصبة.

*

أزقة ضيقة متعرجة، صاعدة، تحيط بها بيوت
متلاصقة، جدرانها متشققة، أكلتها الرطوبة، رائحة
العفونة يخالطها دبق البحر تشكل مع عبق الماضي عطرا
خاصا، تقول له:

- هنا عاشت جميلة بوحيرد، وهنا لقي الفرنسيون
أشد أنواع المقاومة، وهنا الحمّات القديمة والمطاعم
الشعبية الرخيصة.

ثم تشد على يده، تلتصق به، وتهمس:

- لن نتناول الغداء في سفير، سأدعوك إلى أكلة
شهية جداً، أنا كلما جئت إلى الجزائر تناولت منها،
سأحدثك عنها كي تشتهيها، هي كوارع البقرة ولسانها،
مسلوقة، اللسان لحم أحمر، والكوارع دهن سميك، ولا بد
من أن تغمس يدك في المرق وتتناول الخبز واللحم بأصابعك،
لا بالملعقة، ستتذوق أول مرة طعم اللحم الدسم المتبل باللفل
الحار والبهار.

يضحك، يتكلم بجد:
- أنا نباتي، لعلك لاحظت ذلك.
تلتصق به أكثر، وتعلق:
- سأفطمك عن الحليب والنبات، يجب أن تذوق اللحم.

*

في الساحة أعلى الجبل تفتح يديها للهواء وتركض
تستقبل الهواء بصدرها، وشعرها يتطاير، وتصيح:
- عاشت الجزائر حرة، عاشت الجزائر عربية،
الرحمة للشهداء.
وتشير إلى السعفات الثلاث المتطاولة إلى السماء،
وتقول:
- هذه سعفات النخيل، ترتفع بعلو تسعين مترا،
وتلتقي في الوسط، وتعود لترتفع إلى الأعلى، لتؤكد عروبة
الجزائر، ووحدة المقاومة الجزائرية ضد المستعمر، تعال
انظر، عند كل سعفة تمثال مناضل جزائري، مناضل
بالحرية والسيوف، ومناضل بالبارودة، ومناضل بالمدفع
الرشاش، لتدل على مراحل تطور المقاومة.
ثم يدخلان معا إلى متحف البطولة، المبني تحت
السعفات مباشرة.

تصميم مدهش، قاعة دائرية كبيرة، هي في الحقيقة شرفة، تطل على ساحة، مسقوفة مغلقة، في الوسط منها صخرة، مخرجة بالدم، وإلى جانبها مصحف شريف مفتوح على حامل خشبي فاخر، تهمس:

- هذه صخرة البطولة، تضرجت بدماء الشهداء، وعليها تحطمت أطماع المستعمرين، هذه الصخرة هي الجزائر الصامدة دائماً، وهذا المصحف رمز الإسلام الذي تمسكت به الجزائر أمام محاولة الفرنسيين تضييع هويتها. ويطوفان بالشرفة، يتأملان على جدارها الممتد على طول القاعة الدائرية صوراً تؤرخ للجزائر، منذ دخول الفرنسيين محتلين، إلى خروجهم منها.

*

خارج المتحف تقول:

- لا شك أنك شعرت بالضيق في داخل المتحف وأحسست بالاختناق، نعم، هذا هو حال الجزائر، في عهد الاحتلال وفي مرحلة المقاومة الصعبة، وفي مرحلة التحرير، لكن هنا الآن ستشعر بحقيقة الحرية، هيا اركض مثلي وافتح صدرك للهواء، وتذوق طعم الحرية. وتمسك بيده، وتركض، وهو يركض إلى جوارها، وتهتف:

- نعم للحرية في كل مكان في العالم.

*

تشد على ذراعه، وهي تقول له:

- والآن سنمضي إلى مكان مدهش، لن ترى مثله في العالم كله.

في ساحة واسعة كبيرة، قريبة من نصب الشهيد، يطلان على فوهة واسعة جدا، لحفرة عميقة، تتدرج هبوطا إلى الأسفل، على شكل مدرجات. وتلتصق به وتهمس:

- هنا أسواق ومحلات تجارية، تنزل إليها، مرحلة مرحلة، وهناك عدد من المقاهي ودار للسينما، ومطاعم، هذا مُجمَع رياض الفتح، سنتناول ما تشاء من المثلجات، بالحليب والكرز، الحليب لك، والكرز لي.

ويعلق:

- لا لن أنزل، اعذريني، هذا النوع من الأسواق يذكرني بحفرة الجحيم التي تخيلها دانتى مؤلفة من تسع طبقات، تضيق شيئا فشيئا، لا اعذريني.

- سأجعلك تحس أنه الفردوس، سوف ندخل إلى السينما، ونستمتع معا بالفيلم، هنا المقاعد مختلفة، هي موائد، كل مائدة لاثنتين فقط، يقدم لك فيها ما تشتهي من الطعام والشراب، ويمكن فيها أن تشعل لي السيكار.

*

- ويرن هاتفه الجوال، ينظر في ساعة يده، ويهتف:
- يا إلهي الساعة الآن الحادية عشرة والنصف، هذا بوجداد.
- تحاول التقاط الهاتف منه، وهي تقول:
- قل له أنا مع كوثر.
- ويرد على الهاتف:
- حقيقتي جاهزة في الاستقبال، أنا هنا عند مجمع رياض الفتح، أنتظر، لن أتحرك من مكاني.
- ويلتفت إليها:
- سامحيني، طائرتي ستقلع عند الواحدة، نحتاج إلى نصف ساعة حتى نصل إلى المطار.
- تطرق، تصمت، صدرها يعلو ويهبط، تقف قبالة، تنظر في عينه، تعلق:
- كنت أتمنى أن تسافر معي إلى تونس، سنذهب معا في رحلة إلى جزيرة جربة، لتعيش مع الماء والهواء والشمس والأجساد شبه العارية، لتعيش الحرية من نوع مختلف.
- يعلق بهدوء:
- أشكرك، أنا في كل يوم جمعة أصلي في الجامع الأموي، بيتي في حلب في ظل منذنته، كما قلت لك،

وأتناول غالباً الكباب الحلبي المشوي مع زوجتي والأولاد، ثم أخذهم سيراً على الأقدام إلى القلعة، وهي جداً قريبة من الجامع الأموي.

- نعم، أتذكر مشينا من الجامع إلى القلعة على الأقدام، ومررنا بأسواق مكتظة بالبضائع وبالناس.
- وهناك، في القلعة، وهي بعلو نصب الشهيد، وهناك كما هنا نتنسم هواء الحرية مع الزوجة والأولاد.
- هذه قناعتك، أنا أختلف معك، ربما لأنني لم أعش هذه الحرية مع زوجي، اعذرنني.

تمد إليه الصندوق الذي لم يغادر يدها، وهي تقول:

- كنت أحلم أن أعقد ربطة عنقك في غرفتي بالفندق، وأن تشعل لي السيكار، بعد أن أقضم رأسه، وأبله بلساني، وأن تتعامل أنت مع هذا القميص الذي اشتريته خاصة لأجلك، لتحتفظ بذكرى مختلفة. على كل حال، أرجوك: اقبلهما، قدم القميص هدية لزوجتك، قل لها: هو وربطة العنق هدية من...

تغص، تتكلم:

- من الجزائر.

وتمد يدها إلى حقيبتها، تستل المنديل وقد لفت به حبة
الدقلة، وهي تقول:

- سنقتسم الآن حبة الدُقلة.
- لا، اتركها، تناولها في تونس.
- لن أتناولها أبداً، تعلمت منك، سأحتفظ بها ما
حييت، هي أيضاً ذكرى من الجزائر.

المؤلف ومؤلفاته

الدكتور أحمد زياد مُحَبِّك.

أستاذ الأدب العربي الحديث بجامعة حلب.

السيرة الشخصية :

- من مواليد مدينة حلب في 10/5/1949 .
- دكتوراه في الأدب العربي الحديث من جامعة دمشق عام 1984.

النشاط الثقافي:

- عضو اتحاد الكتاب العرب منذ عام 1983 .
- عضو هيئة تحرير جريدة الأسبوع الأدبي من عام 1997 إلى عام 2000 .
- عضو جمعية العاديات بحلب منذ عام 1998
- حاز جائزة هيروشيما في المركز الياباني بحلب عن القصة القصيرة عام 1995
- حاز جائزة البتاني في الرقة عن القصة القصيرة عام 1997.

- حاز جائزة جريدة الثورة بدمشق عن القصة القصيرة عام 1998.
- حاز جائزة الباسل للإبداع الفكري بمدينة حلب عام 1998.
- أمين سر اتحاد الكتاب العرب - فرع حلب منذ عام 2001 حتى عام 2010.
- أوفده اتحاد الكتاب العرب لمدة أسبوع إلى الجزائر العاصمة 1988 في زيارة اطلاعية.
- أوفدته جامعة حلب إلى فرنسا ليحاضر في طلاب الدراسات العليا بجامعة ليون الثانية لمدة أسبوع عام 1994.
- حاضر لمدة أسبوع في مدرسي اللغة العربية بمعهد تعليم اللغات الأم في استوكهولم بالسويد بدعوة من المعهد نفسه عام 2000.
- كرمته جمعية النقد الأدبي في اتحاد الكتاب العرب بدمشق بالتعاون مع فرع اتحاد الكتاب العرب في حلب عام 2001.
- أوفدته جامعة حلب إلى جامعة عين شمس بالقاهرة بمهمة البحث العلمي لمدة أربعة أشهر عام 2002.

- عضو لجنة تحكيم في مسابقة القصة القصيرة التي أعلنت عنها مجلة ديوان العرب (الإلكترونية) في القاهرة عام 2005.
- عضو أسرة التحرير في موقع ديوان العرب 2008.
- حاضر لمدة أسبوع في كلية الإلهيات في جامعة وان بمدينة وان في تركيا عام 2009.
- عضو المجلس الأعلى للغة العربية، بيروت، 2009.
- أوفدته جامعة حلب للمرة الثانية إلى جامعة عين شمس بالقاهرة بمهمة البحث العلمي لمدة أربعة أشهر عام 2010.
- عضو لجنة تحكيم في مسابقة ديوان العرب للمجموعة القصصية عام 2012 .
- عضو لجنة تحكيم في مسابقة ديوان العرب للقصة القصيرة عام 2018.

المؤلفات المنشورة :

- حركة التأليف المسرحي في سورية، (دراسة) : اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1982.
- من الحكايات الشعبية، (حكايات شعبية): وزارة الثقافة، دمشق، 1983.

- **يوم لرجل واحد**، (قصص قصيرة): اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1986 .
- **المسرحية التاريخية في المسرح العربي المعاصر**، (دراسة): دار طلاس، دمشق، 1989.
- **حجارة أرضنا**، (قصص قصيرة): مطبعة عكرمة، دمشق، 1989.
- **الكوبرا تصنع العسل**، (رواية): دار القلم العربي، حلب، 1996.
- **بدر الزمان**، (مسرحية): دار القلم العربي، حلب، 1996.
- **حلم الأجنان المطبقة**، (قصص قصيرة): اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1996.
- **عريشة الياسمين**، (قصص قصيرة): دار القلم العربي، حلب، 1996.
- **دراسات في المسرحية العربية**، (دراسة) : مطبوعات جامعة حلب، حلب، 1997.
- **حكايات شعبية (نصوص ودراسة)** : اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1999.
- **دروب الشعر العربي الحديث** (دراسة) : مطبوعات جامعة حلب، حلب، 2000.

- **لأنك معي** (قصص قصيرة جداً) : دار شمال، دمشق، 2000.
- **طعم العصافير** (قصص قصيرة) : دار القلم العربي، حلب، 2001.
- **قصائد مقارنة** (دراسة ونصوص) : مطبوعات جامعة حلب، حلب، 2001.
- **دراسات نقدية من الأسطورة إلى القصة القصيرة** (دراسة): منشورات دار علاء الدين، دمشق، 2001.
- **العودة إلى البحر** (قصص قصيرة): اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001.
- **الرحيل من أجل مها** (قصص قصيرة) : اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003.
- **انكسارات** (بحوث ومقالات) : دار المعرفة، بيروت، 2004.
- **الدكتور أحمد زياد محبك** (كتاب التكريم تأليف مجموعة من الباحثين): اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2004.
- **متعة الرواية** (دراسة): دار المعرفة، بيروت، 2005.
- **من التراث الشعبي** (دراسة) : دار المعرفة، بيروت، 2005.

- وردات في الليل الأخير (قصص قصيرة) : دار المعرفة ، بيروت ، 2005.
- عمر أبوريثة والفنون الجميلة ، (دراسة) ، وزارة الثقافة ، دمشق ، 2006.
- قصيدة النثر ، (دراسة) ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2007.
- قراءات في الشعر العربي الحديث ، (دراسة) ، مطبوعات جامعة حلب ، حلب ، 2007.
- نوافذ وشرفات ، (مقالات) ، دار الثريا ، حلب ، 2007.
- ريش نعام ، (قصص قصيرة جداً) ، دار الثريا ، حلب ، 2007.
- نجوم صغيرة ، (قصص قصيرة جداً) ، مطبعة الأصيل ، حلب ، 2008.
- الأعمدة والغزاة ، (قصص قصيرة) ، دار الثريا ، حلب ، 2009.
- اللغة العربية وثقافة القرن الحادي والعشرين ، (دراسة) دار الثريا ، حلب ، 2009.
- دراسات في المسرح العربية ، (طبعة جديدة) ، طبعة جامعة حلب ، حلب ، 2010.

- حمامات بيض ونارجيلة، (رواية)، دار الفرقان للغات، حلب، 2011.
- عمر أبوريشة والفنون الجميلة، (دراسة)، طبعة ثانية دار الفرقان للغات، حلب، 2012.
- نقد السرد، (دراسة)، دار الفرقان للغات، حلب، 2012.
- فوق سطح العمارة، (مجموعة قصصية)، دار الفرقان للغات، حلب، 2012.
- أبو معتز والكناريات (مجموعة قصصية)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2014.
- ما أزال أنتظر (مجموعة قصص قصيرة جداً)، الشارقة، كتاب الرافد، آب، 2015.
- شقة على شارع النيل، (رواية)، دار أمل الجديدة، دمشق، 2018.
- المؤلفات بالمشاركة:
- ستة كتب في اللغة العربية لغير المختصين لجامعات سورية (1986.1988)
- كتاب أدباء من حلب (مشاركة وإشراف) (ستة أجزاء) حلب (2000-2011)

- عشرون مادة لموسوعة (أعلام العلماء العرب والمسلمين) للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، في تونس (2004_2007).
- الحركة الأدبية في بلاد الشام، مجلدان، إصدار الأمانة العامة لاحتفالية دمشق عاصمة الثقافة العربية، دمشق (2008).

المحتوى

5.....	مفتتح ألم لا ينتهي.....
7.....	جلال وحبات الكرز الكبيرة.....
25.....	خارج حديقة الألعاب.....
37.....	نساء الحافلة.....
43.....	السكين على جانبي.....
49.....	زغردة طويلة.....
71.....	الصمت.....
95.....	اتركوني، سأعيش كما أريد.....
121.....	نظرات متبادلة.....
129.....	حتى في باريس.....
137.....	زيارة إلى المستشار.....
145.....	العصفورة... وبائع الحظوظ.....
171.....	في حديقة السبيل.....
193.....	حبة دُفلة واحدة.....
221.....	المؤلف ومؤلفاته.....

نظرات متبادلة/احمد زياد محبك - دمشق: اتحاد الكتاب العرب
2018 - 224 ص؛ 24 سم - (سلسلة القصة؛ 2)
1 - 813,01 م ح ب ن 2 - 813,009561 م ح ب ن
3 - العنوان 4 - محبك 5 - السلسلة